زُليخة أبوريشة

اللُّغةُ الغائِبة

نحو لغة غير جنسوية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

اسم الكتاب: اللغة الغائبة

نحو لغة غير جنسوية

المؤلف: زليخة أبو ريشة

عدد الصفحات: 152

القياس: 14.5 * 21.5

1000/2014م -1434هـ

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

Dar ninawa for publishing
Ayman Alghazaly
Syria-Damascus

p. o. Box 4650
mob: 00963 933 449734
mob: 00963 958680386
Tel: 00963 11 232 6985
Tel+fax: 00963 11 231 4511
www. ninawa. org
email: info@ninawa. org
ninawa@scs-net. org
facebook. darninawa

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني - دار نينوى

زليخة أبو ريشة

اللغة الغائبة

نحو لغة غير جنسوية

الإهداء

إلى ربى وغيث
من سيغير حوارهما وجه العالم

زليخة

تقديم

يهدف هذا الكتاب أن يكون دليلاً يقدم تحليلاً ما للغة الجنسوية، في مسعى نحو نموذج علمي لتخليص اللغة العربية من صفتها الذكورية الطاغية، ويسبق ذلك دراسةٌ أوليةٌ لظاهرة الجنسوية، ثم تجليها في عددٍ مهمٍ من الدراسات والإنتاج المطبوع قديمه وحديثه.

ولعل هذا الكتاب هو الأول من نوعه في المكتبة العربية بمبتغاه النهائي، وقد سبقته جهود لا تنكر في مجال نقد الكتب المدرسية وأدب الطفل وغيرهما، وما تتضمنه من مفاهيم ذكورية وتنميط لكل من المرأة والرجل. وهي الجهود التي فتحت عيني على حقيقة التحيز الذكوري الصارخ في ثقافتنا الماضية والمعاصرة، مما دفعني إلى القيام بدراساتٍ تتناول الجنسوية في الأدب القديم والحديث، آخرها -عند الانتهاء- بحث سأتقدم به لنيل درجة الدكتوراه من جامعة إكسترا/ بريطانيا عن ((صورة المرأة في أدب الأطفال العربي المعاصر)). ولا بد أن أُنَوِّهَ بالجهود الأخيرة المتميزة للناقد الدكتور عبد الله الغذامي في مقالاته في جريدة الحياة اللندنية عن المرأة واللغة التي ظهرت إلى الوجود بعد إعداد هذا الكتاب.

غير أن هذا الاهتمام اتخذ لديَّ منحى جديداً، تبلور في معالجة اللغة بعد أن كان منصرفاً فقط في معالجة الأدب وما يشبه. وقد كان في محاضرات أستاذي الدكتور (نهاد الموسى) (أستاذ النحو في الجامعة الأردنية) لطالبات وطلاب الدكتوراه في قسم اللغة العربية عام 1989 –

وكنت إحداهن- فرصة اختبار فرضيات مهمة، ربما كانت تطرح لأول مرة في الفكر النحوي واللغوي العربي. وساعدني جو الانفتاح وحداثية الفكر التي يتمتع بها أستاذي آنذاك على خوض التجربة في البحث اللغوي والنحوي.

وقد استمر هذا الاهتمام واتخذ سمتاً أكثر تحديداً في تطوير عملي السابق كمحررةٍ للمواد التعليمية في معهد التربية / الأونروا، حيث أتيح لي أن أفيد في سجالت الرفض والقبول التي واجهتها أثناء قيامي بتحديث النص التربوي على أساس تخليصه -قدر الإمكان- من مظاهر التفكير الذكوري.

وما تزال المهمة شاقة. إذ إن موقعي -ككاتبة، وكمسؤولة عن المواد التعليمية في معهد التربية، يواجهني كل يوم بصعوبةٍ جديدةٍ في معالجة اللغة وتنقيتها وتحويلها إلى لغة عادلة ومتوازنة، فاللغة إرثٌ إنسانيٌ اجتماعيٌ لا يمكن تغييره بين ليلةٍ وضحاها. وما هذه الدراسة وما سيتلوها إلا محاولات لتنبيه الذهن العربي إلى ضرورة القيام بمجهودات دائمة ومستمرة ويقظة لخلخلة الجمود في الإرث اللغوي، وتفعيل ملامح الصحة والعافية فيه، والتفكير -لا على مستوى النظر فحسب بل على مستوى الاستعمال- بالوسائل والأدوات التي تجعل من اللغة العربية لغة الجنسين.

ولأن هذا الكتاب أولاً دعوة مفتوحة إلى أهل الاختصاص من الجنسين- باللغة العربية، ومن هم /هن في أقسام اللغة العربية في الجامعات (أساتذة /أستاذات، طلاب / طالبات)، فقد ضمنته دراسة عن ((صورة التأنيث في الفكر النحويّ: ابن الأنباري نموذجاً)) وقد تناولت هذه الدراسة كتاب ابن الأنباري (المتوفى 328 هـ) الضخم في ظاهرة التأنيث (909 صفحات) (ابن الأنباري 1978، كتاب المذكر والمؤنث، ط1، بغداد)، وتحليل موقفه الفكري..

ولأنه يتوجه أيضاً إلى أهل التربية من الجنسين، فقد استأذنت الأستاذ الدكتور سليمان الريحاني (كلية التربية، الجامعة الأردنية) لتحليل لغته في كتابه ((التخلف العقلي)) (1985، ط2) الذي يعتبر أحد المراجع التي يستخدمها طلاب وطالبات كلية التربية، واستأذنت معهد التربية/ الأونروا في إخضاع بعض مواده للدراسة ولاقتناص أمثلة من عنجهية اللغة أو ليونتها إزاء التأنيث أو المرأة عموماً، أو أمثلة من ذكرها أو تجاهلها في أحيان أخرى..

كما أنني رأيت أن المتورطين والمتورطات في فعل الكتابة للأطفال بحاجة إلى فتح باب النقاش معهنّ/ معهم فيما يتصل بأدب الطفل وتخليصه من الجنسوية، فضمنت هذا الكتاب دراسةً كنت تقدمت بها إلى ندوة ((أدب الأطفال في الأردن: واقع وتطلعات)) التي انعقدت في عمان (23–24 آذار 1988)، معتقدة أنها ستثير بعض الأسئلة الضرورية في هذا السياق.

إن مركز دراسات المرأة –الذي أتشرف برئاسته الآن يولي– بحكم تخصصه بقضايا المرأة– اهتماماً خاصاً بهذا الموضوع الشائك، ولذلك، فإن الهيئة الإدارية للدورة الحالية قد وافقت على إعدادي هذا البحث كدليل عملي –بالإضافة إلى الوعاء النظري– لتأسيس سلوك لغوي مغاير ومتخلص –قدر الإمكان– من تبعيات ومظاهر التحيز الذكوري. وبذلك يكون المركز أول مؤسسة عربية تدعم جهوداً نحو لغة غير جنسوية على هذا النحو. إنني لمدينة للمركز بتبنيه اهتمامي، –بالإعداد والطبع– ودعمه المادي والمعنوي لإنجاز هذا الكتاب.

كما لا بد أن أتوجه بالشكر وبالذكر جميع الذين واللواتي قدمنَ وقدموا لي ما مكنني من إنجاز هذا المشروع: الصديقات والأصدقاء والزميلات والزملاء والأستاذات والأساتذة: د. ناصر بوشوشي (مدير عام دائرة التربية والتعليم/ الأونروا)، على إيجابيته في تقدير البحث

واستجابته لضروراته، وعزة حمودة (متابعتي لتنظيم عملي وجدولته /المجلس الثقافي البريطاني)، د. سليمان الريحاني، وفاضل جواد (للتصميم والتنفيذ... في الوقت الضائع) وإلياس فركوح وإحسان الناطور (دار أزمنة للنشر /للتنضيد في وقتٍ قياسيٍ)، والمجلس الثقافي البريطاني في عمان على اهتمامه ودعمه، وزملائي في العمل الذين منحوني فرصة تطوير مواقفي الفكرية ومقترحاتي اللغوية، والزميلة الصديقة سهيلة بهلوان (محررة المواد التعليمية في معهد التربية) التي معها استطعنا بلوغ أداءٍ لغويٍ في موادنا التعليمية أدعي تميزه. ولها على وجه الخصوص شكر على دأبها وصبرها واحتوائها قلقي الناجم عن التوغل في حقل شائك، الإحساس بالراحة فيه نادر وغير متاح..

ووحدي أتحمل تبعات هذه المغامرة اللغوية.

زليخة أبو ريشة

12 آذار /مارس 1996

أبو نصير

تمهيد

ما زلت أذكر أول مرة قالت لنا فيها معلمة العربية، إننا نخاطب بجمع المذكر إذا كان الحضور (المخاطبين) من النساء وكان بينهن رجل أو ذكر واحد.

أي تغليب التذكير على التأنيث. ومع أن المعلمة كانت من جنس النساء فإنها في ذلك العهد - وليس ببعيد- لم تشر من قريب أو بعيد إلى غرابة هذه القاعدة، مع أن بعض الشهقات قد انبعثت من أرجاء الصف. ومضى الزمن لأقرأ النحاة يقولون: إن «غير العاقل» يجمع جمعاً مؤنثاً سالماً، أي إنهم قد ساووا بين الأنثى العاقلة وغيرها من الكائنات غير العاقلة.. فصارت بلا عقل.

وعندما تبلور اهتمامي بقضية المرأة، دَفَعَتْ إلي إحدى صديقاتي وهي الدكتورة نجوى قصاب حسن، أستاذة الفلسفة في جامعة دمشق، مقالة لها تستهجن فيها أن تنحو اللغة العربية نحو مساواة المرأة (العاقلة) بالحيوان (غير العاقل) في قاعدة الجمع الشهيرة، وتدعو فيها إلى تغيير هذه القاعدة.

وكنت قد بدأت أتتبع بالملاحظة والتأمل -غالباً- بعض المسائل اللغوية والنحوية التي تتصل بالتأنيث والأنثى، وأجد أن الناس والكتاب والأدباء والأساتذة (نساءً ورجالاً) قلما يلحظون ملاحظةً لغويةً أو نحويةً تتصل بقيمة المرأة ومكانتها، ويستخدمون من العبارات والتراكيب ما يشي بغياب التحديق في اللغة التي تحمل الفكر وتشكل نسيجه: «الرجل

المناسب في المكان المناسب» «مواقف الرجولة والشهامة» «الأطفال رجال الغد».....

وعندما بدأ التحري الحقيقي في اللغة، اهتممت بالعودة إلى مصادرها الأساسية ومن ذلك لسان العرب: فإذا فتحت اللسان على مادة (رجل) وجدت المادة تدور في مجملها على معاني الشدة والكمال، وإذا تشبهت امرأة بالرجال في زيهم وهيأتهم لُعنَتْ، وإذا تشبهت برأيهم ومعرفتهم مدحت وبوركت. بل إن كلمة (رجل) قد تكون -حسب ابن سيده- صفة تعني الشدة والكمال. فإذا طالعت مادة (ذكر) في اللسان وجدت ما يلي:

«التذكير: خلاف التأنيث، والذكر خلاف الأنثى.... وامرأة ذكرة ومذكرة ومتذكرة: متشبهة بالذكور... ويوم مذكر إذا وصف بالشدة والصعوبة وكثرة القتل... وطريق مذكر: مخوف صعب...، وفي حديث طارق مولى عثمان، قال لابن الزبير حين صرع: والله ما ولدت النساء أذكر منك، يعني شهماً ماضياً في الأمور....، وقول ذكر: صلب متين، وشعر ذكر: فحل....، وفلاة مذكر: تنبت ذكور البقل، وذكورة: ماخشن منه وما غلظ، وأحرار البقول: ما رق منه وطاب، وذكور البقل ما غلظ وإلى المرارة هو.... والذكر والذكير من الحديد: أيبسه وأشده وأجوده، وهو خلاف الأنيث، وبذلك يسمى السيف مذكراً، ويذكر به القَدومُ والفأس ونحوه، أعني بذلك من الحديد... وذكرة السيف والرجل «حدتهما».

أما إذا وقفت عند مادة (أنث) في اللسان فسأجد أن: «الأنثى: خلاف الذكر من كل شيء... ويقال للموات الذي خلاف الحيوان: الإناث... ويقال للرجل: أنثت تأنيثاً أي لينت له ولم تتشدد. وبعضهم يقول: تأنث في أمره وتخنث... وأرض مئناث وأنيثة: سهلة منبتة، خليقة بالنبات، ليست بغليظة... وبلد أنيث: لين سهل... ومكان أنيث إذا سرع

نباته وكثر... وزعم ابن الأعرابي أن المرأة إنما سميت أنثى من البلد الأنيث، قال: لأن المرأة ألين من الرجل، وسميت أنثى للينها .. وسيف أنيث: وهو الذي ليس بقاطع».

ونجد أن المذكر ينفرد بصفات الشدة والقوة والكمال والشهامة والصعوبة وصنع القرار (ماضياً في الأمور)، والجودة والفحولة، في حين تنفرد الأنثى باللين والسهولة، فإذا وصف بها الذكر بات كهاماً بعيداً عن الشدة متخنثاً.

وطالعتني في الكتب والمجلات والصحف ووسائل الإعلام والمنتديات الاجتماعية والثقافية وتفاصيل الحياة اليومية والأحكام الأخلاقية ومصادر التشريع والقوانين آراءً لا حصر لها تؤطر المرأة في إطار (Stereotype) محدد، وتنمطها في نمط لا تسمح لها بالخروج عليه، وتطلق عليها أحكاماً، وترسم لها صورةً في الغالب الأعم، صورةً سالبةً ثابتةً ساكنةً مستقبلةً.

و أرقتني مسألة التأنيث والتذكير في اللغة العربية. ومسألة هل العربية لغة مذكرة؟ وكانت آراء النسويات (Feminists) تؤكد هذا، وتأتي بأمثلة عن تحيز اللغة للرجل.

ففي الإنكليزية كتبت (ديل سبندر) (Dale Spender) كتابها (Man Made Language)، الرجل صانع اللغة (Spender, 1991). وأكدت في هذا الكتاب أن الرجل قد وضع اللغة الإنكليزية، وأنه ما يزال يطورها تحت سيطرته وفي الاتجاهات التي يريد. وذهبت إلى أن حيز الرجل والمجتمع ضد المرأة يظهر من جملة ما يظهر في اللغة: نحواً ودلالات (Syntax & Semantics)، وعلى الرغم من أن المرأة تستخدم اللغة، إلا أنها -حسب سبندر- مجبرة على استعمال لغة ليست من صنعها.

ومع أن (سبندر) ليست أول من اهتممنَ بالجنسوية في اللغة (Sexism in Language) إلا أن كتابها الذي أشرت إليه يعتبر من أهم

الكتب التي بلورت صرخة الاحتجاج الصادرة عن الحركة النسوية في الغرب بسبب تحيز اللغة للذكر، هذا التحيز الذي ينتقل بشكل تلقائي وآلي إلى تحيز فعلي في المجتمع للذكور ضد الإناث.

وفي عام 1972 صدر أول قاموس عن دار التراث الأمريكي للنشر (The American Heritage Publishing Company) بعنوان (The American Heritage School Dictionary) وفي هذا القاموس يتم للمرة الأولى تعريف بمصطلحات مثل (Sexism) و(Liberated Women) وقد كان لهذا القاموس فضل في حملة مقاومة التحيز الذكوري في اللغة الإنكليزية.

وأصدرت باري ثورن (Barrie Thorne) ونانسي هينلي (Nancy Henley) كتاباً لمجموعة باحثات وباحثين حرّرتاه بعنوان (اللغة والجنس: الفروق والغلبة (Language and Sex: Defferene and Dominance) وفي هذا الكتاب مجموعة بحوث تتناول اللغة والتأنيث والتذكير والمجتمع، ولغة النساء وموضوعات أخرى من منحى ألسني /اجتماعي (Sociolinguistics) الذي أفاد علم اجتماع اللغة (Sociology of Language) في وصف وتفسير السلوك الاجتماعي.

وكتبت (جرمين غرير) كتابها (The Female Eunuch) الذي ترجم بعنوان «المرأة المدجنة» (دار الطليعة، 19) والذي يعتبر قنبلةً فكريةً في وجه الثقافة السائدة، فبقلمها الساخر وعينها الفاحصة المحللة راحت تُعَرّي الثقافة الغربية عن مكنوناتها الخبيئة من ألوان التعصب وأشكال التحيز والتراتبية والهيمنة..

وتقدم هجمة على الشعراء والأدباء الذين يقولبون الأنوثة ولا يرون منها غير ما هو جسدي، نافين عنها الروح والفكر، بتركيزهم على موضوعة الجمال وحصرها بالمرأة، مما يشي بكارثة إنسانية بحق المرأة التي تجرد من كل شيء إلا من هذا الجسد الجميل...!!

وفي العربية أصدرت المفكرة نوال السعداوي مجموعة كتبتها عن المرأة، ومن بينها «الأنثى الأصل» فكانت بذلك رائدة فقه تحرير المرأة الحديث.

ومن جهة أخرى استند عدد من الباحثين الإسلاميين على جزءٍ من آيةٍ «وليس الذكر كالأنثى» في بيان الفروق الجسدية والنفسية والعقلية والاجتماعية التي عناها الخالق بقوله السابق (الخشت، وليس الذكر كالأنثى).

وقد اُقتطعَتْ الجملة القرآنية السابقة من آيةٍ لا علاقة لها بكل هذه المفاهيم التي حاولوا إلصاقها بالمرأة « إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞» (آل عمران: 35-36).

وواضح أن دعاء امرأة عمران ربها بعد أن وضعت طفلتها مريم «وليس الذكر كالأنثى» يشي بمحبة وانحياز الأنثى دون الذكر. فلو كانت تشاء أن تنتقص من إنجابها أنثى لقالت «وليست الأنثى كالذكر، ولوشى ذلك بحنين لوليد ذكر.. ومما يؤكد احتفاء الأم بالمولودة الأنثى دعاءها لها أن تعاذ بالله وذريتها من الشيطان الرجيم، وليس في هذا الكلام تأفف لا ظاهراً ولا باطناً.

فمن أين اخترع فقهاء الذكورية العرب والمسلمون تصوراتهم عن مفاهيم قارة وقواعد للبشرية من عبارات تصلح لأي شيء غير التنظير؟؟.

كل ذلك شكل حوافزي لدرس التأنيث، ولفتني للتنقيب في اللغة.

لقد صار لزاماً أن أكشف بأناة البحث أين يقع الشطط وما هي مظاهره؟ وكيف لنا أن نجتث دواعيه.

الفصل الأول

المفاهيم

ما الجنسوية

لم يدخل مصطلح الجنسوية المعاجم العربية بعد، بينما تعرف المعاجم الإنجليزية الحديثة مصطلح (Sexism) تعريفاً موجزاً، فهو في قاموس (Collins) «التمييز على أساس الجنس وخصوصاً اضطهاد الرجال للنساء»، أما المعاجم والدراسات النسوية فتولي هذا المفهوم اهتماماً واسعاً لأنه يعتبر أهم مفصلٍ فكريٍ يجري تحليله من أجل مناهضته.

ففي قاموس النساء « AMAZON, BLUESTOCKINGS AND CRONES: a feminist dictionary» من إعداد (Cheris Krammarae Paula A.Treichier) الجنسوية كما وردت في عدد من المراجع والكتابات النسوية:

- «A Social relationship in which males have authority over females (Linda Phelps 1975) … The work was evidently coined by Vanauken in a paper called 'Freedom for Movement Girls- Now' (1968) … It is an illustration of a concept, central to women's lives, which was wordless for many years.

«Behavior, policy, language, or other action of men or women which expresses the institutionalized, systematic, comprehensive, or consistent view that women are inferior.»

فالجنسوية بحسب معجم النساء النسوي هذا «علاقة اجتماعية للذكور فيها سلطة على الإناث»، وهي «سلوكٌ وسياسةٌ ولغةٌ وأي فعل آخر يصدر عن رجال أو نساء، تعبر عن وجهة نظر

مؤسساتية، ونظامية، وشاملة ومستمرة تقول بدونية المرأة». ويربط المعجم بين التمييز العنصري (racism) والجنسوية (sexism) حيث إن كلا التمييزين يتعامل مع الأفراد الملونين /الملونات، والنساء على أساس الإتصاف بالدونية، وتضييق الفرص أمامهم /أمامهن، واستغلالهم /هن بسبب الانتماء إلى طبقةٍ معينةٍ (هي السود والنساء) (p.411)

والجنسوية كذلك «تنميط الناس على أساس الجنس تماماً كما تفعل العنصرية في تنميط الناس على أساس العرق واللون» (p.412) كما حددت ذلك سارة ديلامونت (Sara Delamont)، وأكدت هذا المعنى وعلاقة الجنسوية بأشكال التمييز الأخرى أنجيلا ديفيز (Angela Davis).

والجنسوية -بحسب نيل مورتون (Nelle Morton)- «طريقة للسيطرة على الحياة عن طريق الجندر (gender)» كما أنها -بحسب بتسي واريور (Betsy Warrior) «أقدم شكل لمأساة الاضطهاد» (Ibid)، وهي -بحسب سوزان ساندرز (Susan Sands) - «فلسفةٌ غير واعية، مؤسسةٌ على القول إن للرجال الاختيار الأول في كل أمر»، كما تربطها باحثات أخريات بنظام العبودية وبالنظام الإقطاعي. بينما وُصِفَتْ هذه الظاهرة بأنها مرض اجتماعي خطير. ونعتتها سونيا جونسون (Sonia Johnson) بأنها «تعبير مهذب»، للحرب التي تشن على النساء. (p.412)

والجنسوية في رأيي -ترقى إلى مستوى عالٍ في التهجم تتجاوز أنها سلوكٌ أو وجهةُ نظر أو فلسفة أو نمط حياة إلى أنها «أيديولوجيا» تحكم السلوكَ ووجهةَ النظرِ والفلسفة ونمط الحياة، وهي أيديولوجيا قائمة على التمييز بين الجنسين لصالح أحدهما (الذكور)، وتبرير وتفسير وتحليل أسس العلاقات بينهما بأدوات وآليات ونتائج ومقدمات

متحيزة... كما أنها أيديولوجيا تمتد لتحكم لا السلوك البشري والفكر البشري والوجدان البشري فحسب، بل لتحكم اللغة، من حيث هي نتائج أيديولوجيا لا تتوقف عند تأسيس العلاقة بين الجنسين فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى تفسير الكون أيضاً (قصة الخلق كما وردت في الميثيولوجيا التوراتية) تفسيراً استعلائياً ساخطاً يجعل من المرأة «جزءاً» (أسطورة الضلع) اختراع الخطيئة (قصة التفاحة) وعليه أن يتحمل تبعات هذا الاختراع ويتمرغ في وحله على مر الأزمان وتقلب الحضارات والثقافات.

ومن نافل القول إن جوهر الأيديولوجيا الجنسوية وعمودها الأساس هو الفكر الذكوري الذي يحكم إنتاج الثقافة ذكورياً، لتقوم بدورها بإعادة إنتاجه، وهي دورة تشبه دورة الحياة، ولكن لا يموت فيها سوى الإناث، وهو موت يمتد بين الموت المعنوي المنهجي لوأد كرامتهن وانتهاك حقوقهن واستغلالهن بصور شتى من الاستغلال التي عرفها نظاما الإقطاع والعبودية، إلى الموت الحقيقي الجسدي الذي يتم بأسبابٍ متعددةٍ وفي ظروف حروبٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ واجتماعيةٍ شتى..

وحملة الأيديولوجيا الجنسوية رجال ونساء. فعلى الرغم من أن هذه الأيديولوجيا تهدف إلى تحجيم المرأة وتقليص فرص الحياة العادلة أمامها، وصوغ المفاهيم العامة والخاصة التي تحكم تنشئتها الاجتماعية وشروط حياتها وبنيان المجتمع الذي تتحرك فيه، بما يرسم للمرأة أدواراً محددة وصورةً نمطية ثابتة، فإن المرأة -غالباً ما تقاوم حملات التوعية التي تقودها نسويات مناضلات من أجل تحريرها، بسبب ما ترزح تحته من ركام قيم وما تعرضت له من غسيل دماغٍ منهجيٍ شكل لديها مفهوماً متدنياً للذات وألزمها بذهنية عبودية (Slave mentality) ليس من السهل التخلص منها أو حتى الاعتراف بوجودها ...

ولا ينبغي عند الحديث عن الجنسوية أن نهمل الحديث عن الجندرية (gender) التي تؤول دراسات لا حصر لها إلى هذا المصطلح، وقد حملته دلالات جديدة لم تكن في أصل الكلمة (التأنيث والتذكير). إذ تحاول وثائق ودراسات جديدة أن تتفادى ما تثيره مصطلحات النسويات من حساسيةٍ بسبب وضوحها ومباشرتها وحدتها أحياناً، إلى استخدام كلمات ذات صبغة حياديةٍ ظاهرةً. إذ لا يمكن إذا قررنا أن ندرس قضايا الإناث والذكور في مجتمعٍ من المجتمعات الآن أن نصل إلى نتائج متعادلة بالنسبة للجنسين لا على مستوى التنظير ولا على مستوى الممارسة، لا ما كان في القانون ولا ماكان في المعاش... وأيديولوجيا تحمي مكتسبات جنس على حساب جنس آخر، تتمتع بقداسةٍ فكريةٍ وعمليةٍ، فبسبب ولوجها الوعي الجمعي وتعاظم تأثيرها عبر تاريخ ذكوري للبشرية، فإن التخلص منها يصبح غايةً عسيرةَ المنال، إذ إنّ مكافحتها ومناهضتها - وهو ما يقوم به الفكر الاستناري والتقدمي عموماً- يجعل عمليتي المكافحة والمناهضة على مساس بما هو تابو (Taboo) ومقدس.. ذلك المقدس القادم من منطقه الاجتماعي المحافظ لا منطق الأديان بالضرورة. إذ إنّ العادات والتقاليد تكتسب لدى كثير من المجتمعات البشرية صفة التقديس والتماهي مع ما هو قدسي أصلاً أي مع الديني /الإلهي... ولأن التحامي بالمقدسات سهل، ولا يكلف إلا إعلان شعار ذي بريق، فإننا سنصادف عنتاً شديداً ونحن ننشر دعوةً حرةً ودعوةَ إنصافٍ.

هذا بالإضافة إلى أن التخلص من هذا الموروث القيمي الذي يخص المرأة بالدونية لهو مسألةٌ تتطلب درجةً عاليةً من الوعي والصلابة، وهو على الذكور أشق من الإناث، لما يحققه التحرر للمرأة من إنصاف وما يعنيه للذكور من خسائر في مكتسبات منحها لهم التاريخ البطركي الأبويّ الطويل.

اللغة الجنسوية

يعرفها معجم النساء النسوي (Sexist Language) بأنها التصوير اللفظي لهيمنة الذكورية في البيان اللغوي والاستعمال اللغوي أيضاً. فاللغة الجنسوية واحدة من أهم وأقوى الأدوات التي بها يتم ارتكاب التفسير الذكوري للعالم بما يتضمن أن النساء أقل، وأنهن سلبياتٌ مستقبلاتٌ، وأنهن بالتعريف خاضعاتٌ للرجل وتابعاتٌ له. (جوليا بنيلوب ستانلي (Julia Penelope Stabley) (p.412).

واللغة الجنسوية على مستوى البنيان اللغوي يمكن أن تتحدد ملامحها بالحفر الأركيولوجي في اللغة، أما على مستوى الاستعمال فبالتحليل. وهو ما أنوي عمله في الفصول القادمة. ويحتاج الكشف عنها إلى درجة عالية من الحساسية والوعي، تكون مهمتها اقتناص الظواهر الجنسوية والإعلان عنها، واختراع آليات لتجنبها في اللغة -ولذلك فإن فئات الناس على تنوعها تستعمل اللغة الجنسوية، وعندما تُنَبَّه إلى ما تحمله من تحيز، تعتذر بأنها لا تقصد ذلك وإنما تقصد كذا...

التخطيط اللغوي (Language Planning)

بما أن هذا الكتاب يقصد منذ عنوانه «نحو لغة غير جنسوية» إلى توجيه العادات الكلامية والكتابية للناس، فإنه من الجدير أن نطرح السؤال الذي طرحه الدكتور نهاد الموسى في كتابه «التحول إلى الفصحى» عن جواز هذا التدخل وجواز التحكم في اختيارات الناس للمستوى اللغوي الذي يستعملونه؟

والظاهر أن منهجنا الذي اعتمدناه وهو التوجيه المخطط اللغوي يأتي متسقاً مع منهج أولئك (الذين/ واللواتي) يرفعن عقيرة البحث بضرورة التحول إلى الفصحى عن اللغة المحكية أو العكس. وهو منهج

(أي التحول إلى الفصحى) قد احتمل آليات فعلٍ وتخطيطٍ لغوي ومؤسساتيٍ لم تفلت منه مؤسسة من مؤسسات الدولة، سواء أ كان على مستوى استصدار تشريعات حماية للفصحى، أو جبر وقسر عليها، أو ما كان على مستوى وسائل الإعلام و(القارمات) التي تمنح تراخيصها أمانات العواصم والمجالس القروية والبلدية...

أو ما كان على مستوى المناهج وطرائق التدريس وتربية الأجيال، وجهود مجامع اللغة العربية... وكلها قد صدرت بحقها توصياتٌ طويلةٌ عريضةٌ لتقوم بدورها في تحويل الناس من (العامية الوبيلة) إلى (الفصيحة الوضيئة).... بل إنَّ بعض هؤلاء قد ذهب إلى أبعد من ذلك، وهو زج الأسرة لتقوم بدورها في التحدث مع الأطفال بالفصيحة (على افتراض إشراقي متفائل أن الأسرة العربية قد محيت أمية الأمهات والآباء فيها).

ولم تنجح الدعوة إلى الفصحى (أو الفصيحة) من تنظير أيديولوجي ينطلق من حوافز فكرية قومية ووحدوية وأحياناً دينية بحتة باعتبار الفصحى لغة القران. بل إن هذه الدعوة بمنهجها الموسوم قد استجابت في بعض أسبابها إلى دواعي الهوية (Identity) والحفاظ عليها من الضياع والذوبان في الآخر أو مطلق الذوبان، كما في شيوع العاميات وتشرذم الأوطان لغوياً.

كل هذه الاعتبارات والدواعي تكاد تجد نفسها في الدعوة إلى لغة غير جنسوية، فالحافز الفكري قائم على مناهضة التحيز والانتصار لقيم العدالة والمساواة بين نصف سكان كوكب الأرض ونصفه الآخر.أما سؤال الهوية فله حضوره الساطع في جميع الكتابات النسوية، إذ يقف الفكر النسوي بالمرصاد لحالات التماهي والفناء النفسي والسياسي والاقتصادي والثقافي بين النساء وبقية أفراد مجتمعاتهن الصغرى أو الكبرى.. ونحن ها هنا أمام مقاومة تماه على مستوى اللغة.

إن سنن التخطيط اللغوي من أجل إحداث التحول في اللغة واستعمالاتها -على أنها صناعية مدروسة- هي سنن عرفتها لغات أخرى غير العربية كالهنغارية والنرويجية والإستونية (الموسى، التحول إلى الفصحى، المقدمة)، وهي سنن تأخذ بالاعتبار قابلية اللغة للتوجيه.. فليست اللغة مجرد كائن مطلق النواميس ذي نظام ذاتي المسار، كما كان يقول بذلك المنهج البنيوي في أمريكا «دع لغتك وشأنها» (الموسى، عن Taui.V., The Theory of Language Planning). كما أن اللغة ليست كائناً مطواعاً لين العريكة يستجيب لدواعي التوجيه دون أدنى مقاومة، فما تزال الظاهرة اللغوية موضع بحث دؤوب للكشف عن نواميسها وتحصيل خفايا أنظمتها.. وما يزال مطلب السيطرة على هذه الظاهرة- التي هي ظاهرة بشرية ونتاج بشري -يجد من يطمح إليه ويذهب إلى تحقيقه. وخصوصاً أن اللغة ليست مجرد أداة لحمل الأفكار والمشاعر، بل هي نفسها محمول فكري وشعوري يمكن ضبطها متلبسة بحالات تورط كامل بما هو اقتصادي وسياسي واجتماعي واعتقادي وثقافي. إذ لا تنبت اللغة أبداً عن سياقها هذه، وتحمل في بنيانها ملامح حقب مسرفة في الماضي، حقب إثر حقب، على نحو ما يكون التراكم جيولوجياً أحياناً، وعلى نحو ما يكون المحو والإحلال أحياناً أخرى، وعلى نحو ما يكون التفاعل الكيميائي لخلق جديد في سائر الأحوال.

على أن العرب منذ قَعَّدَت القواعد ووضعت كتب اللغة، وربت بناتها وأبنائها على نصوص الجاهلين والقرآن (الكريم)وحددت عصور الاحتجاج، وهي تدرك إدراكاً غير واع أنها تحمي اللغة في ألسنة الأجيال لا من اللحن والخطأ اللغوي فحسب، بل تحمي نظام اللغة من أن تداهمه رياح التغيير التي كان النقد اللغوي يجابهها بشراسة في الإنتاج الإبداعي الشعري على وجه الخصوص.

وقديماً عرف العرب التصحيح اللغوي وهو تعبير عن تخوف

عميق من أن يطال اللغة ما يخرج بها عما قاله الأجداد في عصور نقائهم اللغوي النسبي.. أي من أن تنصاع اللغة لإمكانات التغير التي تمتلكها بفعل، لا نواميسها الداخلية، بل بفعل مؤثرات خارجية من المجتمعات التي تحيا فيها. وهذا يؤكد انسجام ما دعي حديثاً ب «التخطيط اللغوي» مع طبيعة اللغة، وإنّه (أي التخطيط) ليس أمراً مفتعلاً ومقتحماً.

غير أن التخطيط اللغوي في مستواه النظري لا يكفي أن يكون فاعلاً في إحداث التغيير المخطط له. وفي مسألة مقاومة اللغة الجنسوية سنجد أن التنظير الذي لا يتبعه تطبيق فوري من جهة، وفيض نشاط مجتمعي لتحقيق أركانه، سيكون مآله مآل الدعوات المتعددة إلى المحكية (العامية) التي تمت بلسان عربي فصيح مبين -على تباين موقفنا من المسألتين، فنحن لسنا من أنصار الدعوة إلى المحكية بصورتها الحاسمة -إذ ما نفع أعمق النظريات وأهمها إن تمت معالجتها بما يناقضها؟ بعبارة أخرى كيف يمكن الوثوق بخطاب نسوي لمقاومة الجنسوية في اللغة، إذا كنا نستخدم في هذا الخطاب لغة جنسوية؟؟

من المؤكد أن مرحلة الانتقال بين حقبتين أو حالتين -بأبسط ما يكون- هي مرحلةٌ عرضةٌ لأشكال شتى من القلق والغموض تأخذ على عاتقها شد أزر اللغة إزاء المحاولات الأولى لزحزحة ثباتها وتحريكها عن مواقعها القارة، أو التي تبدو كذلك... فإن لم تكن هذه المحاولات ضعيفة واهنة، وإن لم تكن من باب الموضة أو ردة الفعل، وإن لم تكن آنيةً، فإن اللغة تستجيب لخطط التغيير التي ستتحول إلى ناجز فيما بعد..

ولنا في تجربة الغرب في تحويل اللغة الإنجليزية من صفتها الذكورية إلى صفتها الحيادية من جهة، والمتعادلة من جهة أخرى... ما يهدينا في تلمس طريق نحو هذا التحويل... على أنه في العربية أكثر

تعقيداً بسبب خاصية اللغة العربية التي تلحظ دقيق الفروق وتميزها، مما يغنيها من جهة، ويعقد بنيانها والتعامل معه من جهة ثانية...

التوعية اللغوية (Language Awarness)

من المؤكد أن التخطيط اللغوي وحده ليس كافياً لإحداث التغيير المأمول في الظاهرة اللغوية. فثمة مسارات لتحقيق أهداف التخطيط وبرامجه.. فالتوعية بقضية أو مجمل قضايا لغوية -هي موضوع البحث- تعتبر محطة أساسية في مسيرة التحول. وهذه التوعية تتخذ لنفسها استراتيجيات شتى منها ما يتخذ المنبر الإعلامي ومنها ما يتخذ المعالجة الأكاديمية، ومنها ما يختار الاستراتيجيات الحديثة في تطوير شبكات اتصال وحلقات درس ومنتديات ومؤتمرات وسوى ذلك...

على أنه من أكثر الضرورات بروزاً في هذا المجال ترتيب الأولويات فيما يتصل بموضوعنا الذي هو التخلص من اللغة الجنسوية. فإيقاظ حس العدالة، وتوفير أجواء صحية للحوار، والبدء بالمجموعات شبه الجاهزة لقبول التغيير وخلق أجواء ومؤثرات تتحرك باتجاه تفعيل خطاب التوعية... كل ذلك يعتبر مهماً للتنفيذ بعد التخطيط.. إذ إنَّ البعد السياسي لهذه المسألة -التي تبدو لغوية خالصة- لا يمكن تجاهله. وهو بُعْدٌ له علاقة بعهود ومواثيق دولية تتمحور حول هم إزالة جميع أشكال التمييز بين النساء والرجال. ففي اتفاقية الأمم المتحدة حول هذا المعنى (Convention On The Elimination of All Forms of Discrimination Against Women) التي أعدت عام 1980 وبدأ التوقيع عليها من الدول الأعضاء في 3 أيلول /سبتمبر 1981، ولم يوقع من الدول العربية حتى عام 1987 سوى اليمن الديمقراطية، ومصر وتونس والعراق، لا يبدو أن وعياً ما باتجاه تجنب وإزالة التمييز من خلال اللغة، قد تشكل آنذاك لدى معدي /ات مسودة الاتفاقية. وقد تداركت

اليونسكو -كمنظمة دولية- هذا القصور في مواد الاتفاقية المشار إليها، فأثارت في المؤتمر العام لليونسكو الرابع والعشرين موضوع اللغة الجنسوية، وخصوصاً تلك المستخدمة في المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة. وقد تبنى المؤتمر العام آنذاك (شباط /فبراير 1988) قراراً يتصل بالموضوع من بين موضوعات أخرى تخص المرأة (القرار رقم 24) بالإضافة إلى بعض المنظمات الدولية الأخرى (FISCA Council). كما تبنى المؤتمران العامان لليونسكو الخامس والعشرون والسادس والعشرون مواقف حازمة بهذا الصدد، (القرار 109 للدورة 25، والقرار 101 للدورة 26).

وقد أتت هذه القرارات في إطار اهتمام المنظمة الدولية بمكافحة وتجنب جميع أشكال التمييز ضد البشر القائمة على أساس العرق أو الجنس أو اللغة أو الدين، ومعاملة الأفراد والجماعات معاملة عادلة (UNESCO Guidelines On Non-Sexist Language, p1) دعت اليونسكو أهل الكتابة والتأليف ومن يعملون /يعملن في تحرير الوثائق والمقالات والخطب وغيرها، تجنب الكتابة التي تعزز اتجاهات سلبية نحو البشر وأدوار الجنسين. وحذر دليل اليونسكو المتواضع (10 صفحات) من استخدامات للغة قد تترجم على أنها تخفي تحيزاً ضد النساء، أو تمييزاً للرجال عليهن، أو تقليلاً من شأنهن، حتى لو لم يكن المتحدث /ثة تقصد ذلك. غير أن هذا الدليل لا يعرض للمشكلات الحقيقية التي تعترض العاملات والعاملين في مجال التخطيط اللغوي عند التصدي لمشكلة الجنسوية، وليس هدفه إلا فتح باب أمام الناس وتقديم أمثلة من تفادي الجنسوية في اللغة.

الفصل الثاني

التأنيث

صورته في الفكر النحوي العربي

ابن الأنباري نموذجاً



1- المسألة الأولى:

أيهما الأصل المؤنث أم المذكر؟

1.1- يتبلور موقف ابن الأنباري من أولوية المذكر وأنه هو الأصل بالتعبير المباشر. ويمكن عند تطبيق المنهج البنيوي إحصاء عدد المرات التي أورد فيها عبارات بعينها تصرح بأن المذكر هو الأصل، ومن هذه العبارات:

أ. «فأدخلوا (العرب) الهاء في المؤنث الذي لفظه مخالف ذكره» (ص 89)

ب. «أن يكون الاسم المؤنث مخالفاً ذكره» (ص88)

ج. «ربما بنوا الأنثى على الذكر» (ص96)

د. «ويبنون الأنثى على الذكر» (ص 102)

هـ. «فعلى هذه الرواية، الأنثى مبنية على لفظ الذكر» (112)

و. «الدليل على أن المذكر قبل المؤنث أنك تقول: قائم وقائمة وقاعد وقاعدة وجالس وجالسة، فتجد هذا التأنيث فيه مزيداً على التذكير، فالمزيد عليه هو الأصل، وتقول إذا رأيت شيئاً من بعد فلم تدر ما هو: هو شخص، هو شيء، فإذا حصلت معرفته، قلت: امرأةً، دابة، أو ما أشبه ذلك» (ص 128)

وما من حاجة بنا لننبه على دلالة المثال النفسية والفكرية في

التداعي من المرأة إلى الدابة والربط بينهما، فسأظن أنه من العسير أن يفكر نحوي كابن الأنباري أن يقول: «قلت: رجل، دابة» خصوصاً أن عهد العرب بحياة الصحراء وحب الحيوان ومصاحبته قد بعد، والقرن الرابع الهجري حياة حواضر وحضارة.

إن النص الأخير ينقله ابن الأنباري عن بعض النحاة في تفسير ظاهرة التأنيث بقوله «وهذا مذهب الفراء،وقال غيره» (ص 128) وهذا «الغير» كما وضح المحقق هو سيبويه في «الكتاب»، والزُّجَّاج في «ما ينصرف وما لا ينصرف». ولأن ابن الأنباري لم يعلق على هذا التفسير مخالفاً، فيمكن أن نعتبره رأياً موافقاً لرأيه.

ز. وثمة نص صريح يقول فيه ابن الأنباري:

«اعلم أن المذكر والمؤنث، إذا اجتمعا، غلب المذكر على المؤنث، تقول من ذلك: الرجل والمرأة قاما، وقعدا وجلسا، ولا يجوز: قامتا، وقعدتا، وجلستا، لأن المذكر يغلب المؤنث، لأنه هو الأصل، والمؤنث مزيد عليه، فالمزيد عليه هو الأصل» (ص 182)

ح. وثمة نص آخر لا يقل عن سابقه صراحة:

«ويقول في جمع القلة: قام الهندات، وفي جمع الكثرة: قامت الهنود، فتذكر الفعل إذا أردت القلة، وتؤنثه إذا أردت الكثرة. سمعت أبا العباس يقول: إنما خصوا فعل الجمع القليل بالتذكير، وفعل الجمع الكثير بالتأنيث، لأن القليل قبل الكثير، كما أن المذكر قبل المؤنث فجعلوا للقليل التذكير لأنه يشاكله، وجعلوا للكثير التأنيث لأنه يشاكله»

ط. ونص آخر في تعليل لم قالت العرب رجل بالغ وامرأة بالغ، ورجل سافر وامرأة سافر، ورجل عاشق وامرأة عاشق:

إن «بالغاً وسافراً وعاشقاً نعوت مذكرة وصف بهن الإناث فلم يؤنثن، إذ كان أصلهن التذكير. والدليل على أن أصلهن التذكير أن الرجال يوصفون بهذه الأوصاف أكثر مما يوصف بهن النساء».

2.1- ومن الشواهد غير المباشرة على فكر ابن الأنباري بصدد هذه المسألة:

أ. قوله في أول باب من أبواب الكتاب وفي أول جملة منه «اعلم أن الأسماء المؤنثة تنقسم على أربعة أقسام: أحدهن أن يكون الاسم المؤنث فيه علامة فاصلة بينه وبين المذكر كقولك: خديجة وفاطمة... وليلى وسعدى، وعفراء. الهاء والياء والمدة فواصل بين المذكر والمؤنث» (ص88)

ب. ومنها أيضاً تقديمه المذكر على المؤنث في كل مرة يذكر فيها اللفظين:

- في حالة وقوع الاسم على كل من المذكر والمؤنث يقول:

«والأسد يقع على المذكر والمؤنث» (ص 99)

«والقط يقع على المذكر والمؤنث» (ص 107)

«والفرس يقع على المذكر والمؤنث» (ص 107)

«ومما يقع على المذكر والمؤنث الجيأل وهو الضبع» (ص 108)

«ومما يقع على المذكر والمؤنث حضاجر يقع على الذكر والأنثى من الضباع» (ص 110)

«قال أبو عبيدة: حضاجر يقع على الذكر والانثى من الضباع» (ص 100)

«قال أبو عبيدة: حضاجر يقال للذكر والأنثى» (ص 100)

«والثعلب يقع على المذكر والمؤنث، يقال: ثعلب ذكر، ثعلب أنثى» (ص 112)

«كما أن الأفعى والعقرب والضبع يقعن على المذكر والمؤنث» (ص112)

«والذئب يقع على المذكر والمؤنث، يقال ذئب ذكر وذئب أنثى» (ص 114)

«والبقرة تقع على المذكر وعلى المؤنث، كما أن الشاة تقع على المذكر والمؤنث» (ص 114)

وغير هذه الأمثلة كثير، إذ إنها نسق الكاتب ونهجه.

- «وقال الأصمعي: البعير بمنزلة الإنسان، يقال هذا بعير، وهذه بعير، كما يقال هذا إنسان وهذه إنسان» (ص 97)

- «وربما أدخلوا الهاء فقالوا: أسد وأسدة» (ص 99)

- «اعلم أن فاعلاً إذا اشترك فيه الرجال والنساء دخلته هاء التأنيث، كقولك: رجل قائم وامرأة قائمة، وإذا انفردت به النساء دون الرجال لم تدخله هاء التأنيث» (ص 139)

- «إسقاطهم الهاء مما يشترك فيه الرجال والنساء» فمن ذلك قولهم: «غلام بالغ وجاريةٌ بالغ» (ص 140)

فما معنى الأصل؟

من استقراء الشواهد السابقة نجد أن ابن الأنباري قد عبر عن أن المذكر هو الأصل في العبارات والمواقف التالية:

- مخالفة لفظ المؤنث لمذكره.
- بناء المؤنث على المذكر.
- الاسم المزيد عليه (المذكر) هو الأصل.
- تغليب المذكر على المؤنث لأن المذكر هو الأصل.
- تقديم كلمة «المذكر» على «المؤنث» في البيان النحوي أو المثال، إلا إذا اقتضى السياق غير ذلك.
- المذكر قبل المؤنث، كما القليل قبل الكثير.
- أصل بعض الأوصاف التذكير لأن الرجال يوصفون بهذه الأوصاف أكثر مما يوصف بهن النساء.

وجميع صور التعبير هذه تحمل مدلولات ثقافية على صورة

الأنثى في فكر ابن الأنباري وسواه ممن نقل عنهم. فالمذكر -في رأيه- هو الأصل والمؤنث هو الفرع، والمذكر هو المتقدم السابق والمؤنث هو التابع اللاحق، والمذكر هو الأصل والمؤنث الضد، فقد جاء في اللسان: «الخلاف: المضادة» (اللسان: خلف)، ففكرة الضدية هي التي يخرج بها من يقرأ كتاب ابن الأنباري الذي يبدأ خطبة كتابه بقوله:

«إن من تمام معرفة النحو والإعراب معرفة المذكر والمؤنث، لأن من ذكر مؤنثاً، أو أنث مذكراً كان العيب لازماً له كملزومه، من نصب مرفوعاً أو خفض منصوباً أو نصب مخفوضاً» (ص 87). ووضع العنوان على هيئة التقابل والتضاد، فالأصل ضده الفرع، والسابق ضده اللاحق وهكذا...

إذ إن «آصلية» المذكر عند ابن الأنباري -أي جعل المذكر هو المقياس- تكشف عن موقع مؤدلج من المرأة، وهو موقف لا ينفصل عن ثقافة عصره البطركية الأبوية التي غرف منها وتأثر بها من جهة، بل هو موقف لا يتجاوز هذه الثقافة من حيث هي مقولات جاهزة تؤطر المرأة وتقولبها في قوالب نمطية محددة... إنه لا يتجاوز هذه الثقافة ضرباً في تاريخ العرب والعربية. إنه ينطلق في تفسير الظاهرة النحوية واللغوية من منطلق استاتيكي ساكن، غير متصور للمرأة في الواقع الاجتماعي من الذكورة والأنوثة، حيث يتبوأ الذكر أعلى هرم السلطة، ويمارس من هناك (عليته) على من دونه، وفي القاع ليس سوى المرأة..

هل المذكر هو الأصل:

أ. على المستوى النحوي:

إن قول الأنباري وغيره من النحاة: إنَّ لفظ المؤنث قد خالف لفظ ذَكَرِه، أو أن الأسماء المؤنثة قد بنيت على المذكر، ما هو إلا افتراض محض، ومع أن هذه الأقوال والتعليمات للأسماء المؤنثة تكشف -كما ذكرت عن الموقف العقائدي الثقافي من المرأة- لدى هؤلاء النحاة، إلا أننا

-كنحاة أيضاً- نستطيع أن نفترض افتراضاً معاكساً فنقول «خالف المذكر لفظ أنثاه» ولا نكون، نحوياً، قد غيرنا شيئاً في الحقيقة النحوية أو الحكم النحوي... كما نستطيع أن نفترض أيضاً -وهذا ما سنفعله بوضوح بعد قليل- أن بعض الأسماء المذكرة قد بنيت على مؤنثها بحذف علامة التأنيث، بمعنى آخر: من يستطيع أن يجزم أن اللغة في نشأتها، وقد كانت تميل إلى الإطالة، لم يكن التأنيث بعلاماته مظهراً من مظاهر هذه الإطالة؟، ونحن نعلم أن اللغة في تطورها تميل إلى الاختزال والاختصار.

هذا يقودنا إلى المسألة التالية: هل المزيد عليه هو الأصل؟

يعتمد ابن الأنباري في ذلك على أن القليل قبل الكثير، وكأنه يرى أن زيادة الحروف في التأنيث لا تشي بزيادة في المعنى، بل على العكس من ذلك، إنها تؤدي إلى نقص فيه. فالفرع لا يفضل الأصل، واللاحق لا يفضل السابق، والكثير لا يفضل القليل، والزائد (بالحروف) لا يفضل الناقص منها. ويؤيد ابن الأنباري من اللغة صيغة التصغير. ففيها زيادة في الأحرف، وقلة في المعنى. ولكن في التفسير السطحي للظاهرة يخالفه النظر فيما تمنحه الحروف الزائدة من معنى إضافي لم يكن موجوداً: كالتحبب، أو الاحتقار، أو التقليل. فإذا قال ابن الأنباري أو من يشايعه إن التقليل نَقْصٌ، ذكرناه بقوله إن القليل هو الأصل.

ومن جهة ثانية لا بد أن نذكر أن بعض الأسماء المذكرة تضيف إليها العرب حروفاً زائدة على الاسم الأصلي الذي يستوي فيها المذكر والمؤنث لتمييز المذكر فيه مثل: أفعوان وعقربان على أفعى وعقرب. فهل أفادت هذه الزيادة قلةً أو نقصاً أو فرعاً؟ فحسب ابن الأنباري ينبغي أن تحدث الزيادة في الحروف نقصاً في المعنى.

وفي العربية جموعٌ فيها زيادة في المعنى عن الواحد المفرد ونقص في الحروف مثل:



حمار	حمر
قطعة	قطع
علبة	علب
صورة	صور
صحيفة	صحف

أو جموع فيها زيادة في المعنى عن الواحد المفرد وتساو في الحروف:

ظُفْر	ظُفُر
صحيفة	صحائف
جوهرة	جواهر
أنملة	أنامل
أرجوزة	أراجيز
سفرجل	سفارج

كما في العربية جموع للمذكر تدخلها هاء التأنيث (أو تاء التأنيث) وجموع مؤنثها تنقص منها الهاء مثل:

هرّ	هرَرة
هِرّة	، هِرَر

فماذا يقول ابن الأنباري، وما تفسير ذلك؟ والغريب أن ابن الأنباري قد أثبت المثال الأخير، ولكنه لم يعلله.

ب. على المستوى الثقافي الاجتماعي:

سنطرح الفرضية معكوسةً:

الأنثى هي الأصل

إذ إن من عيوب النحاة العرب أنهم حاولوا أحياناً تفسير الظاهرة النحوية أو اللغوية في ضوء ثقافة مجتمعهم القائم بقبول كامل لهذه

الثقافة وكأنها الحقائق المطلقة. ولذلك ضيقوا على أنفسهم وعلينا وعلى علم اللغة وعلم النحو.

ولكي نرد فرضية النحاة العرب «التذكير هو الأصل» لا بد أن نضربَ بعيداً في تاريخ البشرية حيث نشأت اللغة. وإذا كانت المعرفة باللغات السامية القديمة تفيد كثيراً في الاقتراب من الحقيقة في هذه المسألة، فإننا سنعوض عن ذلك بالبحث في الأسطورة من جهة وفي قراءات علم الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا من جهة ثانية في محاولة لاستطلاع حقيقة الأنثى من الكون، وخلق العالم، وتطور البشرية. وسأستثني من دراستي الآيات القرآنية والأحاديث المنسوبة إلى الرسول (ص)، لأنها مع أنها تشكل مكوناً ثقافياً مهماً لم يبح به ابن الأنباري -إلا أنها تحتاج إلى تفصيل خاص وتفسير خاص يضعها في السياق التاريخي الاجتماعي، وهو ما يبعدنا كثيراً عن الموضوع. وأكتفي بالإشارة سريعاً إلى أن القرآن الكريم يخلو من الإشارة الشهيرة إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم، كما يخلو من التصريح أن آدم قد خلق قبل حواء، ولكن المفسرين الذين اعتمدوا كثيراً على الإسرائيليات وقصص التوراة قد فهموا ذلك ضمناً وأفاضوا -مستعينين بأحاديث موضوعة عن أن اعوجاج المرأة من اعوجاج الضلع الذي خلقت منه- بشرح جنسوي يبين فضل الرجل على المرأة.

وإذا كنا نضرب بعيداً في العصور التي نشأت فيها اللغة، فإن تلك العصور الموغلة في القدم كانت سابقة بآلاف السنين نزول الكتب المقدسة وما فيها من أقاصيص أو إشارات عن حواء وآدم (أي المرأة والرجل) وبذلك تخرج هذه الكتب من إطار البحث في تلك الفترة. ومن هنا تأتي أهمية الأسطورة وقراءات علم الآثار وعلم الإناسة.

إن أقدم الأساطير بين أيدينا هي الأساطير السومرية. ودراسة نصوصها المتفرقة تعطينا التسلسل الأسطوري التالي -كما لخصة

فراس السواح (مغامرة العقل ص 34):، ذلك أن البحث السومري يشبع لهفتنا لمعرفة أصول الأشياء في تاريخ الحضارة البشرية أي أوائل المثل والأخلاق والدين والتراتيل الدينية والأساطير والقصص والملاحم (علي القيم: 51)

«في البدء كانت الإلهة (نمو) ولا أحد معها. وهي المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء.

«أنجبت الألهة نمو ولداً وبنتاً. الأول (آن) إله السماء المذكر، والثانية (كي) آلهة الأرض المؤنثة، وكانتا ملتصقتين مع بعضهما، منفصلتين عن أمهما نمو.

«ثم إن (آن) تزوج (كي) فأنجبا بكرهما (إنليل) إله الهواء الذي كان بينهما في مساحة ضيقة لا تسمح له بالحركة.

«إنليل الإله الشاب النشيط، لم يطق ذلك السجن، فقام بقوته الخارقة بإبعاد أبيه آن، عن أمه كي. رفع الأول فصار سماءً، وبسط الثانية فصارت أرضاً، ومضى يرتع بينهما.

«ولكن إنليل كان يعيش في ظلام دامس. فأنجب إنليل ابنه نانا إله القمر، فيبدد الظلام في السماء وينير الأرض.

«نانا إله القمر أنجب بعد ذلك «أتو» إله الشمس الذي بزه في الضياء.

«بعد أن أبعدت السماء عن الأرض، وصدر ضوء القمر الخافت، وضوء الشمس الدافئ، قام إنليل مع بقية الآلهة بخلق مظاهر الحياة الأخرى.»

فمن هذا التلخيص تنتهي إلى أن واضعي هذه الأساطير كانوا يؤمنون بأن الأنثى أولاً، إنها إلهة المجتمع الأمومي. إنها الأم الكبرى. وقد ظهر القمر إلى الوجود قبل الشمس، وهذا يعني «أسبقية عبادة القمر على عبادة الشمس في المجتمعات البدائية السابقة لظهور الحضارات،

مجتمعات الثقافة التي قدمت القمر واعتبرته رمزاً للأم الكبرى (إلهة المجتمع الأمومي) وقدمته على الشمس التي كانت رمزاً للذكر، والتي قدستها المجتمعات الأبوية بعد ذلك باعتبارها رمزاً للآلهة الذكر، آلهة السماء الأعلى» (مغامرة ص 43)

ومن جهة ثانية لا نجد في الأساطير السومرية أية إشارة إلى خلق الإنسان الذكر قبل الإنسان الأنثى، بل يتم التعبير عن أن المولود الجديد كان «في هيئة الإنسان» (مغامرة ص 43) وفي النصوص البابلية ملحمة «اينوما إيليش» التي تعني «عندما في الأعالي» نرى «تعامة» أم الآلهة:

«عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء
«وفي الأسفل لم يكن هناك أرض
«لم يكن (أم الآلهة) سوى آبسو أبوهم،
«وممو، وتعامة التي حملت بهم جميعاً ...»
(م س، ص 55)

ومع أن هذه الأسطورة تتبنى فيما بعد وتعبر عن المجتمع الأبوي، إلا إنها «تنطوي على ذكريات حية وغضة عن تلك الحقبة الفاضلة» (مغامرة ص 86)، من انتقال البشرية من مرحلة الثقافة الأمومية إلى مرحلة الثقافة الأبوية (ص 86)

وفي نص بابلي آخر يحكي قصة خلق الإنسان وهو نص مدينة سيبار، ويعلن أن إلهة الأمومة «مامي، أو ننماخ أو ننخر ساج أو ننتو - الأم الكبرى»، هي الخالقة للزوجين الشابين:

«أنتِ عون الآلهة، مامي، أيتها الحكيمة
«أنتِ الرحم الأم
«يا خالقةَ الجنس البشري
«اخلقي الإنسان فيحمل العبء

«اخلقيه يحمل العبء
«ويأخذ عن الآلهة عناءَ العمل
«فتحتْ ننتو فمها
«وقالتْ للآلهة الكبار
«لن يكون لي أن أنجز ذلك وحدي
«ولكن بمعونة أنكي سوف يخلق الإنسان
«الذي سوف يخشى الآلهة ويعبدها»
(مغامرة ص 93)

ثم تبدأ الأساطير التالية (الكنعانية والتوراتية مثلاً) تذكر الإلهة الأولى، لأنها صارت تصدر عن المجتمع الأبوي الذي آلت إليه البشرية.

وإذا استقرأنا آثار العصر الحجري، ما قبل الثورة الزراعية التي قامت بها المرأة، نجد الشواهد كثيرة على أن هذا العصر قد «غلبت عليه الثقافة النسوية والخصائص الجنسية النسوية» (القيم: ص 20). فإلى الألف الثامنة قبل الميلاد ترجع الدمى النسائية المصنوعة من الحجر أو الطين في بلاد الشام والتي لم تستهدف «تشخيص المرأة» بل «التعبير من خلال المرأة عن النفسية الجماعية لعصر بكامله» (القيم: ص 23)، حيث «تصبح دمية المرآة فيما بعد الشكل الذي يجسد الربة الكبرى التي تظهر للوجود في بلدان المشرق منذ مطلع الألف الثامن قبل الميلاد ثم تأخذ أشكالها المتبدلة في العصور التاريخية» (م.س).

أما علماء الانثروبولوجيا فقد وجهوا ضربات قاسية للفكرة التي ظلت سائدة حتى أواسط القرن التاسع عشر وهي أن العائلة الأبوية قديمة قدم المجتمع الإنساني. (لغز عشتار ص 31) وقدموا الأدلة على وجود شكل أقدم «لا يقوم على قيم الذكورة وسلطة الأب، بل على قيم الأنوثة ومكانة الأم». لقد كانت العائلة الأمومية هي أول وحدة إنسانية

متكاتفة عرفتها البشرية. وفي هذا المجتمع الأمومي المتمركز حول الأم «فاضت طباع المرأة وصفاتها لتصبغ حياة الجماعة وقيمتها وعلاقاتها ونظمها وجمالياتها» (لغز عشتار ص 33)، وفي هذا المجتمع «أسلم الرجل قياده للمرأة، لا لتفوقها الجسدي، بل لتقدير أصيل وعميق لخصائصها الإنسانية وقواها الروحية إيقاع الطبيعة»، (لغز عشتار ص 32) بحيضها المرتبط بدورة القمر، وولادتها المرتبطة بالأرض وبزوغ الزرع، وحليب أثدائها المرتبط بالينابيع. ولذلك «كانت الأرض بالنسبة للأغلبية العظمى من الشعوب البدائية الأم الكبرى» (فريشاور، الجنس في العالم القديم، ص40)، حيث تغدو «مراقبة الطبيعة في أشكالها الأساسية واختبار الحياة اليومية منهلاً للعقائد» (فريشاور ص 39)

لقد تبوأت المرأة في المجتمع الأمومي «عرش الجماعة دينياً وسياسياً واجتماعياً... فقد كانت بحق المنتج الأول في الجماعة... كانت... مسؤولة عن تحضير جلود الحيوانات... وكانت النساجة الأولى والخياطة، وأول من صنع الأواني الفخارية، وبسبب قضائها وقتاً طويلاً في البحث عن الجذور والأعشاب الصالحة للأكل تعلمت خصائص الأعشاب السحرية في شفاء الأمراض، فكانت الطبيعة الأولى، وكانت من يبني البيت ويصنع أثاثه»... وكانت إلى ذلك تاجرة، وهي أول من أوقد شعلة النار الأولى.

وقد توّجتْ دورها الاقتصادي الكبير باكتشاف الزراعة، ونقل الإنسان من مجتمع الصيد والالتقاط إلى مجتمع إنتاج الغذاء، بينما حافظ الرجل (طوال) هذه المرحلة على دوره التقليدي في الصيد والتنقل بحثاً عن الطرائد الكبيرة» (لغز عشتار، ص 32-33)، ولذلك لم يكن غريباً أن تكون المرأة للإنسان الأول -حسب علوم الآثار والأنثروبولوجيا والأساطير- المعبودة الأولى، سيدة الأرض والخصب وسبب النماء ومصدر الأشياء والأحياء. لقد كانت الأم الكبرى تبدو

للإنسان القديم متجسدة في العالم ومجردة، فهي قبة السماء الزرقاء، وأردية الليل السوداء، والبحر ذو المياه الأزلية، إذ لم يكن المادي لينفصل لديه عن الإلهي، ولا الإلهي ليعلو على المادي (لغز عشتار ص 50).

ومع أن المجتمع البشري شهد انتقالاً من المجتمع الأمومي إلى المجتمع البطركي الأبوي -كما ذكرت- إلا أن بقايا من صور المجتمع الأول ظلت سارية، وعبد الإنسان آلهات عبرن غالباً عن الحب والخصب. كما ظل الإنسان حتى عصرنا هذا يجد في الأرض أماً يأتي منها ويعود إليها. وقد عبر شيخ قبيلة هندية في القرن الماضي عن هذه الفكرة برفضه العمل في الأرض: تريدون مني أن أحرث الأرض؟ هل أتناول سكيناً أغمدها في صدر أمي؟... هل علي أن أسلخ جلدها حتى أصل إلى عظامها؟ أنا إن فعلت ذلك فلن يكون في وسعي أن أدخل في جسدها لكي أولد من جديد. تريدون مني أن أقص العشب والحشائش وأبيعه لكي أصير موسراً كالرجل الأبيض؟ لكن كيف أجرؤ على قص شعر أمي» (إلياد، المقدس والدنيوي، ص 131). ويري مرسياً إلياد أن هذه الكلمات وما تكنه من عاطفة تتصل بالصورة البدئية للأرض -الأم التي تلد جميع الكائنات (م. س، 132). هذه الأرض التي تبدو من جهة أخرى بما تمتلكه من قوى سحرية قادرة على الخصوبة دون مساعدة من زوج، هي تعبير عن الولادة العذرية التي كان يؤمن بها الإنسان القديم، وعن تفرد المرأة وتميزها وتقدمها على الرجل.

ويرجع (علي القيم) (ص 53) الأسباب التي كانت وراء تمييز المرأة وإعطائها البعد الرئيس في الخلق والتكوين وتسيير شؤون الحياة، وجعلها الإلهة الأم في السببين التاليين:

1- الخلق: أي القدرة على منح الحياة والإبداع.

2- الإنجاب: أي قدرة الإلهة الأم على حفظ الحياة واستمرارها، وبالإنجاب تؤكد صفة الأمومة الملازمة لها.

وإلى جانب ذلك يرى (علي القيم) أنه يفترض أن تتوافر في الإلهة الأم غير واحدة من الخصائص التالية:

1- إنها الأصل في الكون والمظهر الأول فيه.

2- دورها المؤثر في إدامة حيوية الآلهة الأخرى والتحكم بها، وحفظ حياة البشر والمخلوقات الأخرى: خصب الطبيعة، التكاثر، رعاية الأطفال لينمو.

3- أن تكون الآلهة الأم زوجة الإله الرئيس في مجمع آلهة أيَّة ديانة (ص 53-54).

إذن ليس المذكر هو الأصل بالنسبة لواضعي اللغة، بل المرأة، وبما أن اللغة العربية نشاط إنساني ضارب في القدم، فإن هذه الخلفية التاريخية الأسطورة الأنثروبولوجية قد تسعف في تبني دلالات اجتماعية مخالفة لما آلت إلى النحاة العرب واللغويين العرب من ثقافة ذكرية واضحة التحيز والتجني، مستأنسة في ذلك بما أكده فردينا ندي سوسور، (دي سوسور، علم اللغة العام ص 60) من صلة وثيقة بين علم اللغة والعلوم الأخرى. ومن أن اللغة «حقيقة اجتماعية»، على عكس ما ذهب إليه الدكتور محمد حسن إبراهيم عندما درس التأنيث والتذكير في اللغة (gender) وقال:

«لا يمكن عزو ظهور الجنس في اللغة إلى عوامل من خارجها، سواء أكانت هذه العوامل اجتماعية أو نفسية». ويستنتج أن التأنيث والتذكير لم يوجدا في اللغة التي تظهر فيها الظاهرتان -بقصدية من متحدثيها، بل كانت نتاجاً عرضياً مصادفة في التطور الألسني لبعض اللغات (Ibrahim, p.102).

وهذا في رأيي تَعسَف ينسف فكرة النظام والقاعدة ومبررات وجودها في اللغة. وظاهرة لغوية كبرى كالتأنيث في العربية سيكون من

الصعب تفسيرها خارج السياق الاجتماعي التاريخي الذي ولدت فيه اللغة ونمت وتطورت.

المسألة الثانية:

صور المرأة في فكر ابن الأنباري

لعل النقول التالية توضح جوانب من هذه الصورة:

1- «وأما هندٌ ودعدٌ وجُمْلٌ ونُعْمٌ فإن الذين منعوها الإجراء احتجوا بأن الأمرين اللذين يوجبان الثقل اجتمعا فيهما وهما: التعريف والتأنيث، والذين أجروهما احتجوا بأنها خفيفة إذ كانت على ثلاثة أحرف، وقد سمت العرب بها فأكثرت، وشبب بها الشعراء حتى صارت عندهم بمنزلة المدح لمن وقع عليه هذا الاسم، فخففت وأجريت لهذا المعنى» (ابن الأنباري ص 128)

2- «إنما سكنوا التاء في: قعدت، وقامت، وفي آخر كل فعل ماض، لأنه لم يبق لها شيء من الحركات، وذلك أن الضمة لتاء المتكلم كقولك: قمت وقعدت وجلست، والفتحة لتاء المخاطب، كقولك: قمت وقعدت وجلست، والكسرة لتاء المخاطبة كقولك: قمت وقعدت وجلست. فلما فرقت هذه الحركات على هذه الثلاث تاءات بقيت تاء الأنثى الغائبة لا حظ لها في الحركات. وكرهوا أن يفتحوها فتلبس بتاء المخاطب، وأن يضموها فتلبس بتاء المتكلم، وأن يكسروها فتلبس بتاء المخاطبة» (66)

3- ونقل عن أحد اللغويين -«ولم يذكره» شرحه للبيت، دون تعليق منه أو رفض:

والأرض نوّخَها الإلهُ طَروقةً للماء حتى كلُ زَنْدٍ مُسْفَدُ

«معنى البيت إن الله تعالى جعل الأرض كالأنثى للماء، وجعل الماء كالذكر للأرض، فإذا أمطرت أنبتت، ثم قال: وهكذا كل شيء حتى

الزنود، فإن أعلى الزنديين ذكر، والأسفل أنثى، والنار لهما كالولد ...» (ابن الأنباري ص 187).

4- «ومما وصفوا به الأنثى، ولم يدخلوا فيه علامة التأنيث، لأن أكثر ما يوصف به المذكر، قولهم: أمير بني فلان امرأة، وفلانة وصي بني فلان، ووكيل بني فلان. ألا ترى أن الإمارة والوصية والوكالة الغالب عليها أن تكون للرجال دون النساء، وكذلك يقولون مؤذن فلان امرأةٌ، وفلانةٌ شاهد فلان، لأن الغالب على الأذان والشهادة أن يكونا للرجال دون النساء» (ابن الأنباري ص 147)

5- «وكذلك يقولون (العرب): فلانة كفيلة بني فلان، فيدخلون الهاء، لأن الكفالة تكون من الرجال والنساء، وكان السجستاني يسوي بين كفيل وأمير، وهذا غلط منه لأن الإمارة لا تكاد تكون في النساء، والكفالة تكون في الرجال والنساء» (م. س،ص 69).

6- «والمؤنث قد يشبه بالمذكر، وكذلك المذكر يشبه بالمؤنث» (م. س، ص 150).

7- «والضلع... مؤنثة... جاء في الحديث: «خلقت المرأة من ضلع عوجاء نزعت من جنب آدم صلى الله عليه وسلم» (م. س. ص 287)

8- «إن من تمام معرفة النحو والإعراب معرفة المذكر والمؤنث، لأن من ذكر مؤنثاً، أو أنث مذكراً: كان العيب لازماً له، كلزومه من نصب مرفوعاً أو خفض منصوباً، أو نصب مخفوضاً» (م. س. ص 87)

ونأتي الآن لتفنيد هذه النصوص:

النص الأول:

من الواضح أن ابن الأنباري في هذا النص يستشعر أن المؤنث إذا عومل معاملة المذكر فإنما يتضمن ذلك مدحاً للأول. لقد كان المدح سبباً غير مباشر لإجراء (صرف) هذه الأسماء، وكأن الأسماء المؤنثة في

أصل موقعها الاجتماعي الذم، وإنما يزول عنها الذم إذا شابهت المذكر في ذهاب الثقل، ولا يزول الثقل إلا بكثرة الاستعمال والشيوع. (ننظر مزيداً من التفصيل في الفصل الرابع).

النص الثاني:

يتضمن هذا النص إشارة واضحة إلى رأي ابن الأنباري في موقع الأنثى -المتمثلة في تاء التأنيث الساكنة- في آخر الأولويات. فبالإضافة إلى ما يشي به النص من اعتقاد ابن الأنباري بقصدية بناء العربي لنحو لغته -وهو اعتقاد يرفضه علماء اللغة والنحو- فإن ابن الأنباري قد وجد في السكون تعبيراً نحوياً عن تخلف الأنثى في قافلة الأحياء. وتفسيره هذا لا يعني أن الواقع كذلك. وإذا كان واقع الأنثى في عصره كذلك، فلا بد أن نذكر أن اللغة لم توضع في عصره.

النص الثالث:

لقد وافق ابن الأنباري من نقل عنه من أن «وهكذا كل شيء حتى الزنود، فإن أعلى الزندين ذكر، والأسفل أنثى» مؤمناً أن الذكر أعلى والأنثى أسفل. وهي عبارة تكشف أيضاً عن رأيه بالأنثى كما فصلنا عند الحديث عن «المذكر هو الأصل». وعلى أن البيت المذكور في هذا النص ذو صلة «بمثيولوجيا الإنسان القديم وكيف كان العالم ماءً عماءً، وكيف وَلَدَتْ الإلهةُ الأم (الأم الكبرى) بقية الآلهة -إما بلقاح ذاتي- أو بتزاوج مع إله آخر، إلا أن ابن الأنباري لم يجد شيئاً يرد به على من نقل عنه من لغويين سوى الموافقة على «وهكذا كل شيء» منطلقاً من المعنى الضيق إلى التعميم. مع أن فصول كتابه التالية تبين حالات كثيرة يتساوى فيها المذكر والمؤنث.

وعلى الرغم من أن تذكير أعلى الزندين وتأنيث أسفلهما قد يكون

سببهما موقف اجتماعي من المرأة في العصر الأبوي، أو قد يكون لهما سبب لا نعرفه، فإنه ليس مبرراً لابن الأنباري أن يعمم «وهكذا كل شيء حتى الزنود ...»

ويغالط ابن الأنباري نفسه من مكان آخر، عندما يتحدث عن التأنيث غير الحقيقي «كل ما كان من غير الحيوان فلا حقيقة لتأنيثه» (ص 87)، إذاً يمكن القول: موعظتك تعجبني. إذاً ما الذي جعل هذا التأنيث غير الحقيقي الذي يحتمل على وجه الفرض التذكير، في مكانة دنيا عن المذكر؟

النص الرابع:

قد ينطبق تفسير ابن الأنباري على عصره بعد أن دفعت المرأة دفعاً إلى الحجاب والانحباس في البيت. ومع أن أول من عملت في الحسبة في الإسلام امرأة فإن ابن الأنباري يرى حتى في الوصية والوكالة، وهي أمور متصلة بممارسة المرأة للحياة العامة من ولاية على المال أو تصرف واستثمار له، وقفاً في الغالب على الرجال. إنه يقبل استاتيكية مجتمعه، ويحوله في هذا النص وأمثاله إلى مجتمع تتوزع فيه أدوار النساء والرجال في صور نمطية محددة. فلا تكون المرأة أميرة، ولا وصية ولا وكيلة. وهو بهذا يتجاهل ما تعج به بلاد الشام وما بين الرافدين من تاريخ حافل لنساء ملكن واشتهرن وتصرفن بمقادير المنطقة: الملكة سميراميس (سمورامات) الأشوري والملكة نقية (زاكوتو) الآرامية، والإمبراطورة السورية جوليا دومنا، وزنوبيا ملكة تدمر وسواهن كثر (القيم ص 178 وما بعدها).

وأغلب الظن أن اللغة التي وضعت شعوب عربية ملكتهن نساء لا بد أن يكون فيها أثر هذا الملك. فمن أين جاء التذكير في أمير ووصي ووكيل؟

ثمة احتمالان:

الأول: أن يكون ذلك من صنع النحاة أنفسهم، تقعيدهم القواعد واستقرائهم اللغة لاكتشاف نظامها النحوي والصرفي، يدسون مواقفهم العقدية ويسقطون صور المرأة في الحاضر على اللغة الآتية من قديم موغل في القدم.

الثاني: أن تكون هذه الكلمات مما يستوي فيه المؤنث والمذكر، أي أنها آتية من تلك المرحلة التي لم يكن للرجل مكانة متميزة على المرأة.. من مرحلة ربما كانت فيها اللغة محايدة، وهي مرحلة افتراضية قد تكون سبقت «الأنثى هي الأصل» كما سنوضح ذلك فيما بعد.

النص الخامس:

يؤيد هذا النص السابق ويؤكد ما ذهبنا إليه في تفسيره، فابن الأنباري يُخَطِّئ السجستاني لأنه ساوى بين مهنة أو عمل تقوم به المرأة، وبين مهنة أو منصب لا يكون -في رأيه- إلا للرجال.

النص السادس:

يفسد هذا النص والفصول التي بحث فيها ابن الأنباري فيما يذكر ويؤنث في اتفاق في لفظه ومعناه، نظريته في تميز الذكر. فإذا اعترف بأن المؤنث قد يُشَبَّه بالمؤنث، وأن العرب أطلقت أسماء وأوصافاً بعينها على المذكر والمؤنث معاً، فكيف يفسر ذلك؟ وما تعليله لهذا التساوي؟

النص السابع:

يأتي استشهاد ابن الأنباري بهذا الحديث (الذي ذكره ابن ماجة 1/ 175، والبخاري 4/ 178 بعبارة مختلفة ومعنى مختلف) دليلاً على موقفه

العقائدي من المرأة. وقد استرسل مفسرو القرآن والحديث في التأثر بالإسرائيليات التي تحكي قصة الخلق، وملأوا بها كتبهم وأسفارهم دون تمحيص فالقرآن لم يذكر من قريب أو من بعيد أن حواء خلقت من ضلع عوجاء (كما ذكرت من قبل). فهذه ثقافة اليهود وصورة المرأة لديهم، وهي كما رأينا انحرفت عن الثقافات السابقة عليها في تمجيد الأم الأولى وإلى التشكيك بأمثال هذا الحديث مضى سيد قطب السلفي، الذي قال: «وكل الروايات التي جاء عن خلقها من ضلعه مشوبةٌ بالإسرائيليات لا نملك أن نعتمد عليها، والذي يمكن الجزم به هو فحسب أن اللّه خلق له زوجاً من جنسه فصاروا زوجين اثنين، والسنة التي نعلمها عن كل خلق اللّه هي الزوجية» (قطب، في ظلال القرآن جـ 3).

وبذلك قال المفكر الإسلامي التونسي راشد الغنوشي في كتابه: «المرأة المسلمة في تونس» (الغنوشي، المرأة المسلمة، ص ص 6-16).

النص الثامن:

يضفي ابن الأنباري على ظاهرة التذكير والتأنيث في اللغة أهمية مطلقة تماثل ظاهرة الإعراب. ولا عيب في ذلك لولا أنه قال: «إن من تمام معرفة النحو والإعراب» وليست ظاهرة التأنيث في جميع تفصيلاتها وأبوابها التي أوردها ابن الأنباري متصلة بالنحو أوالإعراب. وقوله «لأن من ذكر مؤنثاً أو أنث مذكراً كان العيب لازماً له كلزومه من......» لا ينسجم مع تلك الأبواب الكثيرة التي أفردها وبين فيها كم يتداخل المؤنث بالمذكر، وكم يتساويان، ويتشابهان، ويختلفان:

- باب ما يستوي فيه المذكر والمؤنث فيما التأنيث في المؤنث منه غير حقيقي لازم (ص 164)
- باب ما يذكر ويؤنث باتفاق من لفظه واختلاف من معناه (ص 187).

- باب ما يكون للمذكر والمؤنث والجمع بلفظ واحد ومعناه في ذلك مختلف (ص 292)
- باب ما يكون للمذكر والمؤنث والاثنين والجميع باتفاق من لفظه ومعناه (ص 233).
- باب ما يذكر من الإنسان ويؤنث (ص 292)
- باب ما يذكر ويؤنث من سائر الأشياء. (ص 309)
- باب ما يذكر ويؤنث باتفاق من لفظه واختلاف من معناه، وباتفاق من لفظه ومعناه. (ص 433).
- باب ما يضاف من المذكر إلى المؤنث فيحمل مرة على لفظ المذكر فيذكر، ومرة على لفظ المؤنث فيؤنث (ص 592)
- باب ما يحمل الفعل على لفظه فيذكر، وعلى معناه فيؤنث (664)

ولولا أن الحدود في فكر ابن الأنباري بين الأنثى والذكر شديد الوضوح ولولا أنه شديد التمسك بهذه الحدود لما قال جملته تلك في فاتحة كتابه، غافلاً عن غياب تلك الحدود في أحيان كثيرة في اللغة.

الفصل الثالث

الجنسوية في أدب الأطفال[1]

[1] من بحث قدم إلى «ندوة أدب الأطفال في الأردن واقع وتطلعات» 1988، عمان

الجنسوية في أدب الطفل

إذا اتفقنا على أن الأهمية الخاصة لأدب الطفل في تشكيل الوعي والوجدان واللغة والخيال فإن هذا الأدب الذي يفيض بالنماذج وأساليب التعبير والصور والشرقيات والأفكار والقيم المفرطة في جنسويتها، يستحق منا أن نوليه عناية البحث.

التعرّف إلى الجنسوية في أدب الطفل

حتى يتمكن أي مهتم ومهتمة، فرداً كان أم مؤسسة، من التعرف إلى الجنسوية المنبثة في أدب الطفل يمكن استخدام لائحة تتكون من ثلاثة أقسام (الملحق 1):

القسم الأول: التحليل الكمي للمحتوى. ويتضمن تقديراً إحصائياً ومقارناً لعدد شخصيا الذكور والإناث الموجودة في العناوين والنصوص والرسوم التطبيقية في كتب الطفل وأدبه (ميشيل، ص 45).

القسم الثاني: التحليل النوعي للمحتوى، ويتضمن مقارنة إحصائية للمواصفات المعطاة لشخصيات الإناث والذكور والأدوار المناطة بها في العناوين والنصوص والرسوم التطبيقية في كتب الطفل وأدبه (م. س.).

القسم الثالث: تحليل الجنسوية السائدة في اللغة، ويعني دراسة الطريقة الي استعملت بها الكلمات والقواعد اللغوية.

فإذا طالعنا في التحليل الكمي أن معظم الشخصيات في أدب الطفل (عينة الدراسة) من الذكور، كان هذا الأدب جنسوياً. وتبدو هذه الجنسوية صارخة عندما نتذكر أن عدد النساء في معظم المجتمعات يساوي عدد الرجال أو يفوقه. ومع ذلك فقد وجدت (ليز دنيغان) التي أجرت بحثاً ل 225 كتاباً عام 1975 أن 68٪ من الشخصيات كانت ذكوراً مقابل 32٪ من الإناث (م. س. ص 45).

وفي التحليل الكمي ينظر أيضاً إلى ماهية الشخصيات في عينة الدراسة إذا ما كانت شخصيات رئيسية أم ثانوية. فقد أظهرت إحدى الدراسات العالية التي أجرتها اليونسكو أن من 100 شخصية رئيسة ثمة 72٪ ذكور و28٪ إناث (م. س.).

أما في التحليل النوعي فنقترح الجوانب التالية للدرس:

- الصفات الجسدية ذات المدلول الثقافي التمييزي.
- الجوانب الاجتماعية لكل من الذكر والأنثى.
- النشاطات التي يمارسها كل من الذكور والإناث: المهن، الألعاب والترفيه، الرياضة، النشاطات الاجتماعية والسياسية، الهوايات والحرف، الأعمال المنزلية، تربية الأطفال وتعليمهم.
- السمات النفسية والسلوكيات الانفعالية للشخصيات.

ولا نحتاج أن نفصل في هذه البنود القول، فقد ذكرنا ما تعنيه في الصفحات السابقة. ولكن يجدر التنبيه إلى أن التحليل يشمل الذكورة والأنوثة حتى لو كانت للحيوانات.

أما في تحليل الجنسوية السائدة في اللغة، فلا بد أن نشير إلى أن اللغتين الفرنسية والإسبانية لغتان جنسويتان وكذلك العربية. فعندما نريد الاستغراق والتعميم نستخدم صيغة المذكر: (فالكاتب.. فالسياسي.. فالعالم.. فالباحث.. فالمواطن..) وعندما نريد الجمع من الجنسين نُغَلِّبُ التذكير فالباحثون (تعني الكتاب والكاتبات).. إلخ وكلمة

العِرْض الذي يحتاج إلى حماية وحذر دائمين تعني من بين ما تعنيه (المَرأة). وكذلك الشرف،... إلخ.

ومن اللغة تأتي التلميحات التي تحمل -باختلاف المجتمع والثقافة- رسائل جنسوية متباينة.

ففي مجال التشبيهات (م. س. ص 94).

- تجري هذه الفتاة كأنها صبي (بالعامية: حسن صبي).
- إنه (ضعيف، جبان خواف) مثل بنت.
- المرأة (الفلانية) نجحت مع أنها امرأة.
- فلانة أخت الرجال.
- يلعب هذا الفتى بألعاب البنات.
- عقلها عقل رجل.
- يتصرف هذا الفتى كالبنات (أي برقة وهدوء).

وفي مجالات التنويه والتبطين:

- تمجيد الأمهات والأمومة (نكون نخفي اعتقاداً تقليدياً بأن الأمومة هي الخيار الوحيد لكل فتاة) (أبو النصر، 10-11).
- لهجة الرثاء للمرأة الأرملة عندما تعمل. فكأن العمل لا يليق بالمرأة.
- تركيز الشعراء والكتاب على أوصاف المرأة الحسية. هؤلاء يعبرون بصورة غير مباشرة عن إهمالهم واحتقارهم لمزايا المرأة الفكرية والخلقية (شوي، أوزولا، 98).

في عدد من الدراسات الألمانية تبين أن الإناث لا يَكَدْنَ يَظْهَرْنَ في الكتب المصورة للطفل، أي أن تمثيلهن أقل بكثير من الذكور في العناوين والأدوار المركزية والتصاوير والقصص. فالأغلبية المطلقة من

الشخصيات من الذكور، حتى الحيوانات مذكرة... وإذا ما ظهرت الإناث فإنهن يؤدين أدواراً تافهة، وكثيراً ما يظهرنَ دون أسماء (م. س.).

وفي دراسة للباحثة الألمانية ليونوره فايتسمان لكتابين أميركيين هما: «ماذا تستطيع البنات أن يعملن؟» و«ماذا يستطيع الفتيان أن يعملوا؟» توصلت إلى ما يلي: الهدف الأعلى للبنات هو أن يصرن أمهات. والهدف الأعلى للفتيان هو أن يصيروا «رئيساً للولايات المتحدة». وجميع المهن المقترحة للنساء هي مهن تمارس ضمن البيت. أما المهن الرجالية فثلاث منها فقط تمارس في البيت بينما إحدى عشرة مهنة خارج البيت» (م. س. ص 103)

وفي دراسة (لشومبار دولوف) كشف عن حقيقة مذهلة: «لقد جرى تذكير أدب الطفل في فرنسا منذ عام 1930» (م. س. ص 106). وهذا يذكرنا بالعناوين التي تحملها مجلات الأطفال في الوطن العربي التي يغلب عليها التذكير (سمير، طرزان، سوبر مان، الوطواط، بطوط، عرفان، العربي الصغير، سامر، ماجد، افتح يا سمسم.... إلخ).

أصدر ناشر أميركي معروف (ماكغروهل) (Mcgraw Hill) استجابة للمبادرات التي قامت بها حركات تحرير المرأة، دليلاً للمعاملة المتساوية بين الجنسين في نصوص الكتب المدرسية. كما قدم ناشر آخر في فرنسا فرنان ناثان (Fernand Nathan) توصيات لكتّاب الأطفال ورسّامي هذه الكتب (م. س. ص 53).

وضمت أندريه ميشيل كتابها الذي أشرنا إليه «تعليمات مختصرة لإنتاج مطبوعات لا جنسوية» (م. س.). كما أعدت الدكتوره جولندا أبو نصر وإيرين لورفنج وجميلة ميقاتي دليلاً للتعرف إلى الجنسوية في الكتب المدرسية وإزالتها منها (Abu-Nasr, 1983).

وإذا أردنا أن نعمل على إزالة الجنسوية من أدب وكتب الطفل فعلينا أن نتوصل إلى تعليمات، على من يتصدى للكتابة للأطفال وإعداد

مواد ثقافية لهم /لهن آن يراعيها. ونستطيع أن نضع الهيكل العام التالي مستخلصاً من الأدلة الأربعة المشار إليها أعلاه.

هيكل عام لأدب غير جنسوي للطفل

1- نسبة عادلة من شخصيات الذكور والإناث.

2- توزيع عادل للأدوار بين النساء والرجال.

1.2- في العائلة

تقديم صور واقعية لأسر غير كاملة العدد: أمهات مطلقات، رجال عازبون، نساء عازبات، جدات، عمات، أسر تديرها نساء (ثمة 33٪ من العائلات في العالم تديرها نساء، وهناك نسبة أكثر بكثير من العائلات التي تعتمد على عمل المرأة من أجل معيشتها (ميشيل، ص 53).

تَحَمّلُ الذكر في الأسر مسؤولية مشتركة مع إناث الأسرة في الأعباء المنزلية، وتعليم الأطفال وتأمين المعيشة واستخدامه -أي الذكر- وسائل الترفيه التي تستخدمها الأنثى أيضاً.

2.2- في الحياة المدرسية:

إظهار ميل الجنسين للعلوم المختلفة بنسب متساوية وإظهار نسب متساوية من القادة التربويين من الجنسين.

3.2- في الحياة العملية:

سيكون من النساء شاعرات وأديبا وفنانات ومهندسات وطبيبات وصانعات قرار، ومخترعات، ومكتشفات، ونساء أعمال، وربات عمل ومخططات وجراحات.. كما للرجال بنسب متساوية. كما سيكون من الرجال ممرضون وسكرتاريون، وعمال غير مهرة، ومساعدون في محلات

الخضار، وطابعون على الآلات الكاتبة.. «إن المنافسة والاختصاص والطموح والتفاني والرغبة في تلقي العلم، والتقدم والمشاركة في الاكتشافات العلمية، والخلق الفني... كل هذا سيكون موزعاً بين الجنسين. وكذلك الأمر بالنسبة إلى المواصفات السلبية (عدم الكفاية، عدم الاختصاص، الافتقار إلى الحماسة في العمل، أو في تعلم أشياء جديدة، أو الرغبة في التقدم) وستوزع المناصب العالية بعدل بين النساء والرجال» (ميشيل، ص 54)

4.2- في الأدوار السياسية والاجتماعية:

تظهر المرأة وهي تقوم بهذه الأدوار على كل المستويات: القرية، الحي، المدينة، المحافظة، الوطن، في المنظمات العربية، الدولية،... بالكفاية والحماسة والإيجابية التي يظهر بها الرجل تماماً. فالتاريخ العربي الإسلامي حتى الآن هو تاريخ الذكور. كما ينبغي أن يتقاسم الجنسان الصفات الإيجابية والسلبية بشكل متساوٍ.

3. توزيع عادل للسمات النفسية والانفعالية والجسدية بين الجنسين:

وذلك يتضمن عدم إضفاء الخصائص الثابتة على المرأة سواء كانت سلبية لتبرر ثانوية دورها في الحياة، أم إيجابية لتبرر استغلالها والاستمرار فيه (انظري الملحق3). والشهامة ليست وقفاً على الرجال، والرجولة ليست سوى الخصائص البيولوجية للرجل، وكذلك الأنوثة للأنثى. وكل صفات التفاني والإخلاص والفضائل إنما هي صفات إنسانية يمكن أن يتصف بها الرجال والنساء على حد سواء، وكذلك الصفات السلبية. وإلا لتعارض ذلك مع عدالة التكليف بالقوانين والشرائع، ولستتبع ذلك تمييز في العقوبات وإشكاليات أخرى لم تعد خافية على أحد، ولم تعد تصلح لتبرير حيازة الرجل للسلطة المطلقة.

4. تخليص اللغة من الجنسوية ما أمكن:

1:4 في المفردات.

2:4 في الاستعارات والتشابيه والكنايات.

3:4 في الأمثال.

4:4 في القواعد.

5:4 عند الاستغراق والتعميم.

نماذج لأدب طفل جنسوي

أثناء إعداد هذه الورقة كان ابني (10 سنوات) يشاهد برنامجاً تلفازياً، يذكر شيئاً عن مشاركة المرأة في بناء وطنها. فما كان من الصغير إلا أعلن صوته احتجاجاً وقال: المرأة مكانها في البيت. ولما حاورته وسألته بم تنقص المرأة عن الرجل لم يستطع الجواب. وأمسكت بيدي نسخة من كتاب الكاتبة روضة الهدهد: «أسد فوق حيفا: فراس العجلوني» وعليها الإهداء التالي إلى ابنتي:

«إلى الغالية ربى صقر... في سبيل الأطفال... رجال الغد وأمهاته.. تهون الصعاب» «ضعوا خطين تحت رجال الغد وأمهاته». فهنا بالإهداء العفوي، لخَّصَتْ الأديبة (روضة الهدهد) موقفها الحقيقي من دور المرأة (مع أنها كاتبة وذات نشاط في الحقل العام، وهي زوج وأم وغير قانعة بهذين الدورين فقط).

وإليكم النص الجنسوي التالي:

«في ليلة من الليالي كانت عائشة تسير في حديقة منزلها. فوجدت حيواناً صغيراً يخرج من شقٍّ بالجدار، ويسير. فقالت لنفسها:

لم لا أمسك هذه الجرادة؟ ولكنها عادت فقالت:

لا، لا، إنه يختلف كثيراً عن الجرادة.

أخذت عائشة تنتقل وراء هذا الحيوان، حتى رأت أخاها خالداً، فقالت له:

إني أشاهد هنا حيواناً صغيراً غريباً.

نظر خالد فوجد عقرباً كبيراً من عقارب المنزل، فدفع أخته بعيداً عنها، وأحضر عصا، وأخذ يضرب العقرب حتى قتلها، ثم قال لأخته:

هذه عقرب يا عائشة، وهي حيوانٌ مؤذٍ، ولها لسعةٌ مؤلمة سامة، تؤذي الملسوع إذا لم يسارع الطبيب إلى إسعافه. ثم نظر إلى عائشة وقال:

أنت طفلة ذكية، تفكرين دائماً في كل شيء قبل أن تقومي بعمله» (أبو نصر، ص 35).

فهذا النص يصور الأنثى غير قادرة على التصرف في المواقف الحرجة التي تتطلب سرعة الخاطر والشجاعة في المواجهة والسرعة في التصرف، فأحضر الكاتب ذكراً ليفعل ذلك. وبعد أن فعل مارس استعلاءه الذكري «أنت طفلة ذكية» وهي عبارة لا يقولها الصغار لبعضهم حتى لو كانوا أكبر سناً، بل يقولها البالغون عن الصغار.

ولتعديل النص وتخليصه من الجنسوية يصبح كما يلي:

(أبو نصر، ص 37)

« ... أخذت عائشة تنتقل وراء هذا الحيوان، حتى رأت أختها سناء، فقالت لها ...

نظرت سناء فوجدت عقرباً كبيراً من عقارب المنزل، فدفعت أختها بعيداً عنها، وأحضرت عصا، وأخذت تضرب العقرب حتى قتلتها.

إن الأدب العربي للأطفال مليء بالجنسوية المعلنة أحياناً والخفية

أحياناً كثيرة. وليس بغريب. بل إن الجنسوية تتعدى النصوص المعدة إلى رسوم كتب الأطفال (ننظر الملحق4). ولكني لاحظت أن أدب الطفل في الأردن يحاول -في التحليل الكمي- الخروج من إطار الجنسوية إلى تمثيل أكبر للعنصر النسائي في الأعمال الأدبية الموجهة إلى الأطفال. ولو أن هذا الأدب ما يزال أسير القيم الاجتماعية وأسير رواسب كتابه /كاتباته ومعديه /معداته.

وتعتبر محاولات (يوسف حمدان وعلي البتيري، وفخري قعوار، وليالي بدر، وأحمد أبو عرقوب) وسوى هؤلاء محاولات في مجال الكم يمثل التنبه إلى ضرورة أن تكون الأنثى حاضرة في الأعمال الأدبية، وأن تأخذ أدواراً رئيسة في هذه الأعمال. ولكن طريقاً شاقةً وطويلةً أمام هؤلاء ينبغي سلوكها قبل أن نستطيع الحكم أن أدب الطفل في الأردن قد تخلص من الجنسوية وعفنها المستتر.

نماذج لأدب غير جنسوي للطفل

نادرة هي النصوص التي تخلو من الجنسوية في الأدب العربي. وقبل أن أعرض نموذجاً غير جنسوي، سأشير إلى تجربة الناشر ما كغروهيل في نشر كتب غير جنسوية للأطفال. وأشير بصورة خاصة إلى كتاب «قصص لأطفال أحرار» (Stories For Free Children) فهذه القصص كانت تظهر في مجلة مز (Ms). وهي قصص تهدف إلى محو الجنسوية ومقاومتها لدى الأطفال. وقد لقيت نجاحاً جماهيرياً عريضاً لدى الأطفال والوالدين. وهذه القصص تهدف ببساطة إلى أن تسمح للطفل أن يكون نفسه حقيقةً. أي أن يكون حراً في التعبير عن نفسه وفق مشاعره الحقيقية، وأن ينمي مواهبه ويتبع ميوله الأمينة دون أن يستخدم مقياساً لقياسها وفق مساطر الراشدين والمجتمع حول ما ينبغي للبنت أو الصبي فعله. كما أن هذه القصص تشجع الأطفال أن

يعبروا عن مشاعرهم بالخوف والاختلاف والخجل من مستوى العائلة دون حرج. وتشجع الأطفال على أن يتفهموا أن الواحد منهم يمكن أن يحوي في داخله عدداً من أصناف البشر. وأن يحبوا أنفسهم وأن يكونوا عادلين قدر الإمكان مع الآخرين في الوقت نفسه. وأن يسعدوا باللعب مع الأصدقاء وأن تكون لهم أسرارهم الخاصة عندما ينفردون بأنفسهم. هذه القصص تخاطب جميع الأجزاء المكونة للطفل. كما تبلغ الأطفال على اختلاف ميولهم ومشاربهم رسائل مختلفة (Pogrebin, Ed., p8).

وفيما يلي نص مترجم لقصة غير جنسوية بعنوان «الفتاة ذات الشعور العجيب» (Pogrebin, p3)

«كان لدى بنت شعور عجيب».

لم يكن لهذا الشعور اسم. ولكنه كان وفياً للبنت فبادلته الوفاء.

والشعور جعل البنت تتصرف بطريقة عجيبة... ترقص وتغني أغنيات رائعة. جعلتها تضحك على أشياء يتقاتل عليها الآخرون. الشعور جعل الطبيعة في عينها واسعة ورائعة. وبسبب الشعور، فإن البنت رأت وسمعت عن أشياء عجيبة حقاً. مثلاً:

1- رجال ذوو لحى من عنب.

2- صديق دائم الكلام، وآخر دائم الإصغاء.

3- طيور بنظارات شمسية.

4- صرافون على هيئة طائر البطريق.

5- أطفال راشدون.

6- حذاء عجيب غير عادي.

7- قبعة فضولية جداً.

ذات يوم، خرج رجل من الظلال، وأثنى على البنت وشعورها. وأخبرها أن العالم بحاجة إلى مثل هذا الشعور. وبعد ذلك بدأت سلسلة من حوادث غير سعيدة. كان على الشعور أن يكون جاهزاً ومستعداً دائماً

للاستقبال.. باحثون وعلماء وسياسيون حاولوا أن يفسروا الشعور وأن يمنحوه اسماً. آخرون حاولوا سرقة الشعور وادعاءه.

وكلما غدت البنت أكثر شهرة غدا الشعور ضعيفاً، سَئِمَاً من التجاهل،... إلى أن اختفى أخيراً.

في البداية، لم تلحظ البنت أن الشعور قد اختفى ولكن، فيما بعد أخذت تشعر بفراغ داخلي. انتابتها أحلام مروعة. كانت تستطيع أن ترى ببصيرتها أنها لم تعد تحس بشيء. كل الأشخاص كانوا يتصرفون ويظهرون بشكل مشابه. ولم تعد تثق بأحد. كانت تعلم أن عليها أن تجد شعورها.

رجل الظل ناداها: «تعالي». وأغراها بالهدايا. وألقى على مسامعها الفكاهات، حتى تضحك وتنسى. ولكنها رفضت أن تسمع، ومضت بعيداً.

صغار كرام قدموا إليها مشاعرهم. ولكنها رفضت بأدب وتابعت السير بعيداً.... بعيداً.

رجال حكماء منحوها حقائق مدهشة. ولكنها تجاهلتهم.، وتابعت السير... بعيداً... بعيداً... حتى وصلت أخيراً إلى حيث بدأت. وبعد وقت طويل شعت رائحة شذية، ورأت منظراً مدهشاً وأصواتاً أعجب من ذي قبل.

وقد شعرت عندئذ بالخجل. ولم يكن عليها أن نعتذر أو تبرر. لقد عاد إليها شعورها ثانية».

نموذج آخر لأدب غير جنسوي: حوار بين طفل وطفلة

(نص لبرنامج تلفازي)

«صبي يلتقي بنتاً» (Pogrebin Cothin, p24-31)

«صوت عميق: هاي.

صوت عال: هاي.

صوت عميق: أنا طفل.

صوت عال: ماذا تظنني؟ رغيفاً من الخبز؟

عميق: ممكن أن تكون. كيف لي أن أعرف؟ ولدت للتو. أنا طفل. لا أعرف إذا كنت تحت شجرة أو في مستشفى.. أو ماذا. أنا سعيد فقط لأنني هنا.

عال: حسناً... أنا طفل أيضاً.

عميق: افهمها كما تشاء. لا أريد أن أتشاجر معك.

عال: ما بك. خائف.

عميق: نعم... أنا كذلك... أنا خائف صغير. سأخبرك لمه. انظر. أنا لا أعرف إذا كنت ولداً أو بنتاً بعد.

عال: وما علاقة ذلك بالموضوع؟

عميق: حسناً. إذا كنت صبياً وكنت بنتاً فبإمكانك أن تعضني. هل تظن أنني أحب أن أفقد سناً من أسناني في أول يوم لي في الحياة؟

عال: ما هي السن؟

عميق: انتبه علي. أنا ولدت للتو. أنا طفل. أنا لا أعرف شيئاً بعد.

عال: هل تظن أنك بنت؟

عميق: لا أعرف. قد أكون. أظن أنني كذلك. لم يسبق لي آن كنت شيئاً آخر من قبل، دعني أرى... دعني ألقي نظرة حولي. هم م قد ق نغشه.، صغيرة. رفيعة. ياب. أنا بنت. ها هو ذا. وقت البنات.

عال: ماذا تظنني؟

عميق: أنت؟ مسألة سهلة. أنت صبي.

عال: أمتأكدة أنت؟

عميق: طبعاً متأكدة. أنا حية منذ أربع، خمس دقائق. ولم أرتكب خطأً بعد.

عال: يي... لا أشعر أنني صبي.

عميق: لأنك لا تستطيع آن ترى نفسك.

عال: لماذا؟ كيف أبدو؟

عميق: أصلع. أنت امرؤ أصلع. أصلع، أصلع. أنت أصلع مثل كرة البينج بونج. هل أنت أصلع؟

عال: طيب؟

عميق: وهكذا ... الصبيان صلع. والبنات لهن شعر.

عال: متأكدة؟

عميق:طبعاً متأكدة. من الأصلع أمك أم أبوك؟

عال: أبي.

عميق: أنهيت مرافعتي.

عال: هم م م... أنت أيضاً صلعاء.

عميق: إنك تمزح.

عال: لا أمزح.

عميق: لا تنظر.

عال: لمه؟

عميق: بنت صلعاء... شيء مقزز.

عال: قد تكون أنت صبياً وأنا بنتاً.

عميق: ها أنت تعود للموضوع ثانية. قلت لك: أنا بنت. أعرف ذلك. أعرف ذلك. أنا بنت. وأنت صبي.

عال: أظن أنك مخطئة.

عميق: لم أخطأ من قبل قط. ماذا عن الحلاقة؟

عال ماذا عنها؟

عميق: أنت حلقت ذقنك لتوك. صح؟

عال: خطأ.

عميق: تماماً. وتعرف لمه؟ لأنه كل واحد يولد بذقن ناعمة (محلوقة). البنات فقط لا يحتجن للحلاقة، والصبيان يحتاجون.

عال: طيب!.. ماذا يثبت ذلك؟

عميق: غداً صباحاً. من يحتج أن يحلق ذقنه يكن صبياً.

عال: لا أستطيع الانتظار حتى صباح الغد.

عميق: انظر. هذا يثبت ذلك. البنات صبورات. والصبيان نزقون.

عال: يه. ماذا أيضاً؟

عميق: هل تحتفظ بالسر؟

عال: بكل تأكيد.

عميق: ها أنت ذا. الصبيان يحتفظون بالأسرار بينما البنات لا يفعلن ذلك.

عال: تابعي.

عميق: هل تخاف من الفئران؟

عال: لا.

عميق: أنا خائف... أنا أذعر منها. أنا أكرهها. زئ... زئ... زئ..... ماذا تريد أن تكون عندما تصبح كبيراً؟

عال: رجل إطفائي.

عميق: أرأيت؟

عال: وماذا عنك؟

عميق: مضيفة كوكتيل. ألا يثبت ذلك لك شيئاً؟

عال: لا بد أنك على حق.

عميق: أخبرتك. أنا دائماً مصيبة. أنت صبي وأنا بنت؟

عال: آظن ذلك. آوه... انتظري. جاءت الممرضة لتغير لنا حفاظاتنا.

عميق: بالنسبة للوقت أيضاً... لم يسبق لي أن كنت غير مرتاحة في حياتي مثل هذه المرة.

عال: هيه... انظري ذلك.

عميق: ماذا؟

عال: أترى ذلك؟ أنت بنت... وأنا صبي.

عميق: هيه. هذا ما يبدو.

عال: ماذا تظن بصدد ذلك؟

عميق: أنا لا أفهم ذلك.

عال: حسناً. أكيد سيبرهن ذلك لك شيئاً.

عميق: ماذا؟

عال: لا تستطيع أن تحكم على كتاب من غلافه.

عميق: ها. ها. ها... ماذا يعني ذلك؟

عال: كيف لي أن أعرف؟ أنا مجرد طفلة.

عميق: وأنا كذلك..... يا هوو...

عال: يا هو.....

نموذج عربي:

كتب الروائي القصاص الفلسطيني «غسان كنفاني» للطفل: قصة «القنديل الصغير» (كنفاني، 1985) وهو مدرك أنه يرسم صورة جديدة للمرأة.

فالملك الطيب العادل المحبوب مات وترك ابنة صغيرة «ليس بوسعها أن تحكم» كما ترك لها وصية يقول فيها: «كي تصبحي ملكة يجب أن تحملي الشمس إلى القصر. وإذا لم تستطيعي... فإنك ستقضين حياتك في صندوق خشبي مغلق عقاباً لك». وقررت الأميرة الصغيرة أنها لا تريد أن تكون ملكة أبداً. وهذا ما أخبرت به حكيم

القصر. غير أنه أفهمها أن القوانين المكتوبة تحرم على الأمير أو الأميرة أن يرفضا الحكم. وتسلقت الأميرة الجبل العالي فلما بلغت قمته وجدت الشمس بعيدة جداً. وبكت الأميرة الصغيرة دون جدوى. ثم علقت على جدران القصر الخارجية بياناً تعلن فيه أن أي رجل يستطيع أن يساعدها في حمل الشمس إلى القصر سينال مكافأة سخية. ولكن أحداً لم يستطع مساعدتها. وأوشكت المدة المحددة أن تنتهي. وتنجح الأميرة أخيراً أن تدخل آلاف الناس بقناديلهم المضيئة المتوهجة كأنها الشمس، إلى ساحات القصر، ولكي تفعل ذلك تهدم الأسوار وتزول الحواجز بينها وبين الناس وبينها وبين الشمس فتتدفق الأشعة.......

وميزة قصة غسان كنفاني أنه جعل الشخصية الرئيسية امرأة. وأنه جعلها تحل محل معضلتها للوصول إلى الحكم بنفسها. وتنتصر على أحزانها النسوية وتتحرك في الاتجاه الصحيح. ولم يجعل مكافأة من ينجح في مساعدتها بالزواج. وهو ما حرصت الحكاية الشعبية على تكراره والتأكيد عليه، وكأن الزواج يمكن أن يكون مقايضة أو مكافأة على شيء أو نهاية المطاف للمرأة.

ومع ذلك فإن غسان قد وقع في حبائل الأدب الذكوري عندما جعل جميع الشخصيات المحيطة بالأميرة من الذكور، دون حاجة القصة إلى ذلك. إذ يمكن أن يكون الرجل ذو القنديل امرأة أو امرأة ورجلاً، ويمكن عندئذ أن تكون الحشود التي دخلت القصر من الرجال والنساء. فهذا هو المجتمع... وهكذا نريده: من النساء والرجال.

الفصل الرابع

التحدي والتغيير في اللغة

أمثلة ونماذج

ينطلق هذا الكتاب من حقيقة أن «اللغة مفتاح التغيير» كما قالت بذلك النسوية الفرنسية جوليا كريستيفيا (Sellers, Language and Sexual Difference, p.98).

ومع أن السجال بين النسويات الفرنسيات والنسويات الأنجلو أمريكانيات ما يزال قائماً حول جدوى تغيير اللغة القصدي، مثل تخليص اللغة من كلمات مثل (Chairman)، و(man kind)، فإننا لسنا بصدد استعراض وجهة نظر أي من المدرستين. ونكتفي في هذا الفصل بعرض تجارب مما يندرج تحت التخطيط اللغوي، ونماذج من الكتابات والاستخدامات اللغوية. وتحليل دلالاتها، واقتراح بدائل لها .. وليس الهدف بطبيعة الحال التعرض إلى أشخاص الكتاب أو الكاتبات، بمقدار ما هي الرغبة في مواجهة اللغة والإبانة عن مأزقها الحقيقي.. وهو ما كشفنا عنه نسبياً في الفصل الثاني.

مأزق اللغة والفكر:

يتجلى مأزق اللغة الحقيقي -في هذا الصدد- في علاقتها الجدلية بالتفكير ومحتواه الفكري والشعوري. فبمقدار ما تنصاع اللغة للتشكل عبر محاولات العقل البشري لجعلها وعاء الفكر ومضمونه، فإنها تلعب دوراً مهماً وأساسياً في تكوين الفكر وتشكيله. ولا يوجد حد فاصل في هذه العلاقة.

فإن البيضة والدجاجة سيظل مطروحاً إلى أمد غير منظور.

ويهمنا في هذا الصدد أن نُدَلِّلَ على أن الإشكالية التي تظهر في تغييب الأنثى في ظلال الذكر في اللغة، سيؤدي بدرجة أو بأخرى، من ثم، إلى تغييبها في الواقع. بمعنى أن اللغة التي هي نتاج إنساني يحفل بالمكنون الروحي والعقلي والنفسي والوجداني والاجتماعي والثقافي لجماعة بشرية، ستنهض بدور ضخ هذا المكنون في الواقع وتعزيزه والمساعدة على إعادة إنتاجه.. ونستطيع أن نزعم-إذاً- أن الخطاب العربي المعاصر الذي يحفل بصبغة الذكورة ويتوجه نحو الذكور علناً (والإناث ضمناً - في أحسن الأحوال). سيلغي إذاً من اهتماماته الأنثى كوجود. فكلما تم الحديث والدرس والبحث والكتابة عن المعلمين والطلاب والكتاب والفنانين والحرفيين والسياسيين والمفكرين والمهنيين والإداريين والمنتجين والاقتصاديين والفلاسفة والمتخلفين عقلياً والأذكياء وذوي الحاجات الخاصة والأطفال... تم نفي المعلمات والطالبات والكاتبات والفنانات والحرفيات والسياسيات والمفكرات والمهنيات والإداريات والمنتجات والاقتصاديات والفيلسوفات والمتخلفات عقلياً والذكيات وذوات الحاجات الخاصة والطفلات....

إن إلغاء وجود الإناث في الخطاب العربي المعاصر -ما لم يكن الموضوع متعلقاً بالمرأة أصلاً- يتم بمنهجية دقيقة. ويواجه الاعتراض على هذه المنهجية إما بالسخرية والتسخيف، وإما بمنطق التغليب بالرد: «إن المعلمين تعني المعلمات أيضاً، وإن الطلاب تعني الطالبات أيضاً، وإنَّ الكُتّاب والكاتب تعني الكاتبات أو الكاتبة أيضاً» وهكذا.... وهو منطق فندناه وبينا تحيزه وانضواءه على تكريس منهجي لدونية المرأة.

أمامنا الآن نموذجان من البحث العلمي الرصين لم تغب فيهما المرأة من اللغة فحسب وإنما غابت من البحث نفسه على أهمية وجودها ودرسها.

البحث الأول «التخلف العقلي» للدكتور سليمان الريحاني.
فبالإضافة إلى ما فصلناه في الصفحات القادمة من هذا الفصل تحت عنوان «التغيير اللغوي عملياً» فيما يتصل بالاستخدام الوظيفي للغة في هذا الكتاب، فإن أثر اللغة الذكورية قد تعدى تغييب الأنثى من اللغة إلى خطأ منهجي في استبعاد الأنثى من الدراسة بشكل عام.. ما لم يكن الأمر متعلقاً بالأمهات.

تحت عنوان «أسباب التخلف العقلي.. عوامل غير محددة» (الريحاني، 1985، ص 68 وما بعدها) يعرض المؤلف لعدد من الدراسات التحليلية التي تناولت العوامل الثقافية وأثرها في التخلف العقلي. ويلخص النتائج التي انتهت إليها تلك الدراسات والتي تمت على عدد من المتخلفين عقلياً (أجمع المذكر هنا بحسب الكتاب) غير أن المؤلف لا يشير من قريب أو بعيد إلى أن هذه الدراسات قد تناولت الأطفال من الجنسين (أي الطفلات أيضاً).. فدراسة سكيلز (Skeels) ودراسة كيرك (Kirk) ودراسة جو سكين وسبكر (Guskin & Spicker) جميعها لم تشر -كما وردت عند الريحاني- إلى جنس الأطفال، ومن ثم إلى العوامل الثقافية التي يتوقع أن تكون وراء زيادة نسبة المتخلفات عقلياً في الدرجة والعدد عن المتخلفين عقلياً في المجتمعات البشرية التي تحتفي بالذكر على حساب الأنثى. فعبارات مثل (الريحاني ص 74) «ولكن ما من شك أن الحرمان الثقافي والاجتماعي والاقتصادي عوامل يمكن أن تسهم في تدني القدرة العقلية لدى الطفل، وإنَّ تحسين الوضع الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للطفل إنما يزيد من احتمال زيادة القدرة العقلية».... يمكن أن تفضي إلى حيرة كبيرة.. إذ يبدو أن الجنس مغيب كتأثير في التخلف العقلي. في حين أن الأمراض التي تصيب الأطفال والطفلات بعد الولادة تتفاوت تأثيراً على كل منهما لا بسبب بيولوجي، بل

لأسباب ثقافية، إذ إن موقف الأهل والأمهات من المرض يختلف إذا أصيب به ذكر العائلة أو أنثاها . ففي المستويات الثقافية والاقتصادية المتدنية تعامل الأنثى من الأطفال بإهمال أكبر مما يعامل به الذكور. وهذه حقيقة شائعة لا تحتاج إلى إثبات. كما أن فرص تحسين القدرة العقلية للأطفال الذكور متاحة لهم اجتماعياً أكثر مما هي متاحة للطفلات الإناث. إذ يغلب على السلوك الاجتماعي للعائلة العربية – بشكل عام- الميل نحو حجب الطفلة المعاقة عن الأنظار، بسبب الخجل منها من جهة، والخوف من تعرضها للتحرش أو العدوان الجنسي، وهو حجب يؤدي من ثم إلى زيادة درجة الإعاقة لديها إذ يعزلها عن فرص التدريب التي لا يمكن أن تتم بين جدران أربعة.

ومع أن المؤلف يشير إلى أن النساء يعبرن عن «اتجاهات أكثر تفضيلاً نحو المتخلفين عقلياً مما يعبر عنه الرجال» (الريحاني ص 154) إلا أنه عندما يتحدث عن «اتجاهات المعلمين والمهنيين العاملين مع المتخلفين عقلياً» لا يتطرق البتة إلى اتجاهات المعلمات والمهنيات العاملات مع المتخلفين والمتخلفات عقلياً . وعندما يبحث في «اتجاهات والدي الأطفال المتخلفين عقلياً نحو أطفالهم المتخلفين» (الريحاني ص 159 وما بعدها)، يقدم إشارات إلى اتجاهات الوالدة وتأثيرها على «المتخلف عقلياً». ولا يشير البتة إلى المتخلفات عقلياً .

ولعل الإشارة الوحيدة إلى جنس «المتخلف عقلياً» جاءت في دراسة ميدانية أجراها المؤلف عام 1978 وانتهت إلى «أنه لا يوجد أثر ذو دلالة إحصائية لعامل جنس الطفل المتخلف عقلياً على اتجاهات والديه نحو التخلف العقلي» (الريحاني ص 165- 166).. وهو ما لم تنفه أو تتفق معه الدراسات الأخرى التي اعتمد عليها المؤلف في فحص «اتجاهات الناس نحو التخلف العقلي»، مما يجعلنا نتريث في قبول نتائج دراسة الدكتور الريحاني لتفردها من ناحية، ولأنها تشكل

انسلاخاً عن تأثير عامل جنس الطفل والطفلة عموماً على اتجاهات الأمهات والآباء نحو الأطفال والطفلات عموماً (في التربية والتعليم، واللعب، واختيار فرص التخصص، واختيار المهنة، واختيار شريك/ شريكة الحياة..... إلخ)، وهي اتجاهات تميز عموماً -بين الإناث والذكور لصالح الذكور...



أما البحث الثاني فأكثر التصاقاً بموضوع هذا الكتاب -اللغة- وهو «الطفل واللغة» للباحث المغربي (الغالي أحرشاو.) (أحرشاو، 1993). ومثلما وقع البحث الأول في تغييب الأنثى من اللغة، إلى تغييبها من البحث، كذلك حدث الأمران في هذا البحث.

بغض النظر عن المسعى الذي يهدف إليه هذا البحث وهو «التأطير النظري والمنهجي للتمثلات الدلالية عند الطفل»، فإنَّ غَلَبَةَ اللغة الذكورية على البحث أدت أيضاً إلى أن تكون الأفعال موضوع الدرس أفعال تذكير (أكل، قضم، شرب، أخذ، أعطى، اشترى، باع، بادل، أنفق، سدَّد،.....) مما اعتبره خطأ منهجياً. فقد اعتبر الباحث أن الأفعال المذكرة هي الأفعال في العربية، غافلاً عن حقيقة أن الفعل في العربية مذكر ومؤنث، وأنه إذا كان يريد دراسة الفعل مجرداً عليه أن يخضع للدراسة أفعالاً مؤنثة، ليرى ما يجرده الطفل من كليهما. كما أن الأمثلة التي أوردها المؤلف -في معظمها- وخصوصاً في حالة الفاعل أو ما يحل محله (المسند إليه)، أمثلة مذكرة تدور حول مذكر (فتح علي الباب، ضرب علي زيداً، كسر زيد الطاولة، صنع زيد الطاولة، تزوج زيد من فاطمة أخت علي، تظاهر زيد بالغنى.... إلخ) (أحرشاوج 1 ص 70 وما بعدها).

وعندما يشرح الباحث عينة البحث يذكر أن العدد بلغ 288 طفلاً ولا يحدد إذا ما كان بين هؤلاء الأطفال -الذكور غالباً- أي أنثى، فعندما يشير إلى المدارس التي اختيرت منها العينة عشوائياً (مدرستي علي بن بسام وابن طفيل للتعليم الابتدائي، وروض السندباد للتعليم الأولى) يتركنا في حيرة، فهل اختار من روض السندباد أية مجموعة إناث؟

والباحث لم يشرح لنا أية إشارة إلى أن اختيار العينة من جنس واحد (إذ نتوقع أن يكون اختياره من روض السندياد من الذكور فقط.. وهو تكهن لم يجب عنه البحث)، وهو في رأينا خطأ منهجي، ذلك أن الذكور والإناث يكتسبن اللغة الذكورية والأنثوية على السواء. ولكن لنا أن نتساءل: ألا يدخل جنس العينة عاملاً في اكتساب اللغة! خصوصاً أن الجنس لا يعني فقط الفروق البيولوجية والفسيولوجية، بل يعني أيضاً الفروق الاجتماعية والثقافية، وخصوصاً أن الباحث يشير إلى «العوامل الاجتماعية» في اكتساب التمثلات الدلالية للأفعال (أحرشاو، ص 338) وأهمية التجارب والخبرات الواقعية في اكتساب دلالة الأفعال (أي اللغة عموماً).. وإذا كنا نعرف أن خبرات الإناث وتجاربهن تختلف عن خبرات الذكور وتجاربهم فيما يتصل بالهوية ومفهوم الذات وتحقيق الذات وما يتصل بوجودهن كجنس، فلنا أن نجدد التساؤل: ألا يشكل اختلاف الجنس عاملاً في اكتساب اللغة؟؟



نكتفي بهذين المثالين كشاهدين على تأثير اللغة بمحتواها الفكري على منهج البحث -أي بحث- ومن ثم على نتائجه.

مقترحات لتطوير وثائق الدولة والمنظمات/ المؤسسات:

تحفل محاضر الاجتماعات ونماذج العقود ونماذج البيانات والوثائق الرسمية (جواز السفر، دفتر العائلة، الشهادة المدرسية، الجامعية) ورقاع الدعوات والرسائل الرسمية، بالصيغ الذكورية.

ففي جواز السفر (اسم حامله)، وفي دفتر العائلة (رب العائلة) وفي شهادة الميلاد (اسم المولود) وفي الشهادة المدرسية (اسم التلميذ/ مربي الصف/ مدير المدرسة)، وفي رقاع الدعوات: حضرة السيد .... وهكذا.

ولذلك، ومن أجل عدالة في ذكر النساء والرجال، ورفعاً لبعض أشكال التمييز ضد النساء، فإننا ندعو أن تستجيب المؤسسات الرسمية والخاصة لدواعي التطوير، وتلبي حاجات التغيير. وتعيد النظر فيما يصدر عنها من وثائق وسواها. فتصبح في جواز السفر (اسم حامله/ ته)، أو (اسم حامله/ حاملته) ويشطب من أي جواز (اسم الزوجة) لتمنح الزوجة والزوج، جوازاً مستقلاً لا فضل لأحد على أحد ولا منة في منحه، ولا تحتاج فيه الزوجة لأخذ إذن زوجها في استصداره أو تجديده، فأية مهانة أن تنتقص فيه مواطنتها التي كفلها الدستور ليتحكم فيها مواطن آخر بالصدفة كان زوجها أو أباها...

أما دفتر العائلة فإنه نموذج لتعزيز البنيان الهرمي البطركي، فالربوبية فيه للذكر كيفما كان. يصبح الابن أو الشقيق القاصر أحياناً هو رب أمه وأخته الراشدتين العاقلتين ذواتي التجارب والذمة المالية والوزن الاجتماعي... إلخ..

تجربتنا في معهد التربية

يعتبر معهد التربية (التابع للأونروا) أول معهد عربي لتدريب المعلمين والمعلمات في أثناء الخدمة في هذه المنطقة من العالم. فقد تأسس عام 1964، وما يزال حتى الآن واحداً من أهم معاهد التدريب في

الوطن العربي، ففيه تدربت كوادر معظم المعاهد ومراكز تدريب المعلمين والمعلمات التي أنشئت بعده. ويقوم نظام هذا المعهد على الجمع بين التدرب عن بعد والتدريب بالمواجهة، ويعقد دورات في سائر الأقطار المضيفة لمدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (لبنان، سوريا، الأردن، الضفة الغربية، غزة). وتعد لهذه الدورات مواد تعليمية تسلم ذاتها لما يشبه التعليم عن بعد (Distance Education). ويعد هذه المواد خبراء وخبيرات وكتاب وكاتبات في شتى التخصصات تلك التي تشمل مواد الدراسة في التعليم الأساسي (اللغات، والعلوم والرياضيات، والاجتماعيات... إلخ)، وتلك التي تغطي أساليب تدريسها، وموضوعات التربية ومشتقاتها: كالإدارة التربوية، والتقويم التربوي، والإشراف، والتوجيه والإرشاد، والوسائل التعليمية/ التعلّمية، وعلم النفس التربوي، والتربية الخاصة وغير ذلك.

وفي المعهد وحدة تشرف على إعداد وتنفيذ وإنتاج وتوزيع المواد التعليمية التي يشارف عددها كل عام (1000) ألف مادة تقريباً، يستخدمها عدد من المتدربين والمتدربات ممن يعملن في سلك التعليم أو الإشراف التربوي أو الإدارة التربوية، ينوف عدد الجميع على 700 سبعمائة متدربة ومتدرب تقريباً كل عام.

ولما كانت المواد التعليمية تستخدم اللغة الناجزة بتوظيفاتها السائدة، فقد كان لا بد من إعادة النظر فيما يقدم كل عام إلى هذا العدد الكبير من مسؤولي التربية ومسؤولات التربية، اللواتي يسهمن في تشكيل الوعي اللغوي لجيل بكامله. وقد وضعت وحدة المواد التعليمية في المعهد خطوطاً عريضة للتغيير اللغوي يستند إلى احترام اتفاقيات الأمم المتحدة المتعلقة بإزالة جميع أشكال التمييز ضد النساء. كما وضعت خبراء المعهد وخبيراته في صورة التغيير المزمع، ووزعت على الجميع دليل اليونسكو نحو لغة غير جنسوية المشار إليه سابقاً. وطرح

الموضوع للنقاش في اجتماعات لجنة المواد التعليمية التي تناقش المواد التعليمية وتحبيزها وتساهم في تطويرها، ونالت اللغة الجنسوية حظاً وافراً من النقاش والنظر والتعليق، كما نوقشت في مكاتب الرئاسة العامة بحرارة وفاعلية. وبما أن الموضوع خلافي، فإنَّ صراعاً صحياً قد أخذ حيزاً أفاد في تطوير أدواتنا لضبط إيقاع التغيير، والاستعداد نفسياً وفقهياً لمواجهة أشكال المقاومة الأخرى، التي أتوقع أن تتمترس خلفها المؤسسة التقليدية في المجتمع العربي.

ومضى التغيير يتمّ على المستويات التالية:

1- مستوى المخاطبين/ المخاطبات:

وهم/ هن الفئة المستهدفة من المتدربين والمتدربات والمعلمين والمعلمات والمشرفين والمشرفات.

2- مستوى الأمثلة التي تتجاهل وجود المرأة في الحياة أو في الصف أو في الجهاز التعليمي.

3- مستوى الأدوار والمهن التي تنمط الإناث والذكور.

4- مستوى بنية اللغة.

5- مستوى الاستخدام الوظيفي للغة.

صعوبات ومشكلات:

تنقسم الصعوبات التي تواجهها في التغيير اللغوي إلى نوعين:

الأول: اجتماعي/ ثقافي يتعلق بمواقف الناس من فكرة التغيير، ووهم قدسية اللغة، لأنها لغة القرآن. إذ إن المجتمعات التقليدية ذات القيم الساكنة تقاوم التغيير أساسياً، وتبرر مقاومته بأنه (أي التغيير) مناهض للقيم الدينية، وذلك على غير وعي بحقيقة القيم الدينية، وفقدان القدرة (أو الرغبة) على التمييز بين ما هو وضعي (من صنع البشر) وماهو سماوي. فكثيراً ما يتماهى الأشخاص البشر بالإلهي،

فتصبح آراؤهم (والتذكير هنا مقصود) هي إرادة الله، ويصدرونها للاستهلاك البشري على أنها من جهة السماء.

ويمكن تذليل هذه الصعوبة بأساليب متعددة بحسب ثقافة الفئة المخاطبة ودرجة وعيها ومستواها التعليمي.

إن حلقات البحث وأشكال السجال الحيوي وعقد ندوات خاصة، بالإضافة إلى استصدار قرارات (قوانين) ملزمة، يمكن أن تؤدي كلها إلى خلق أمر واقع، سيجد الناس أنفسهم مضطرين للتعامل معه. فما لم يصل التغيير اللغوي إلى مستوى القرار السياسي، فإن الأمر سيظل متروكاً للمزاج الشخصي، وهو ما ينبغي التحذير منه كثيراً، بسبب تأرجحه وعدم استقراره وعدم صلاحيته للاعتماد عليه من ثمة.

أما النوع الثاني من الصعوبات فهو المتصل باللغة نفسها. وهنا كنا نجد أنفسنا أمام المآزق التالية:

1- نَحو اللغة العربية نحو ذكوريٌّ معقدٌ

أ- على مستوى المصطلح:

الفاعل، المفعول به، المفعول فيه، المفعول لأجله، نائب الفاعل، ضمير المتكلم، ضمير المخاطب، ضمير الغائب..... إلخ.

وهذه لا يمكن العبث بها، وتحتاج إلى جهود نحوية جبارة لإعادة قراءة التراث النحوي العربي بعين ناقدة غير جنسوية، وإعادة طرح مصطلحات جديدة من مثل:

المفعول بـ، المفعول في، المفعول لأجل، ضمير التكلم، ضمير الخطاب، ضمير الغياب.... وهكذا...

ب- على مستوى القاعدة:

وقد بينا كيف تستتر الثقافة الأبوية البطركية وراء القاعدة التي

تبدو حاسمة فاصلة لا مجال للأخذ والرد فيها، عندما درسنا ابن الأنباري في الفصل الثاني.

جـ. على مستوى الاستعمال:

ومشكلات هذا المستوى نوعان:

- ثقافية.
- فنية.

أما الثقافية فتلك التي تعود إلى صورة المرأة/ الأنثى في ذهن المتكلم/ المتكلمة، فإذا قبل الذهن تغيير الصورة صار ممكناً تغيير اللغة الصادرة عنه في مستواها الثقافي. مثل:

كانت	تصبح
جبان كالنساء	جبان كالنعام
عمّر الرجل الأرض	عمّر النساء والرجال الأرض
إنه لمن الرجولة الدفاع عن الوطن	إنه لمن الواجب/ الشهامة الدفاع عن الوطن

ولا يحتاج الأمر عندئذ إلا إلى التدريب والتبصير ونشر الحس اللغوي النسوي الذي يناهض التحيز وأشكال التمييز ضد الأجناس البشرية والفئات الاثنية أو العرقية أو الدينية أو فئات الإعاقات... وغير ذلك.

ولكن ينبغي التنبه إلى أن الخروج من دائرة المذكر السحرية لن يكون سهلاً، فلطالما وقعنا نحن المناديات بلغة غير جنسوية في شرك اللغة الجنسوية بسبب الألفة والعادة، والمشقة الذهنية ودرجة الوعي والتنبه التي تحتاجها منا النقلة النوعية في اللغة (مثال ذلك الملاحق رقم 3، وملحق رقم 4 وكذلك الملحق 5، حيث لم تعن جهة الترجمة نفسها في تغيير اللغة الذكورية، وظل التفرد «للناشرين» و«المؤلفين» و«الإنسان» و«كرامته» و«جنسه» و«عنصره ولونه»، الأطفال «يختارون»... إلخ).

أما مشكلة المشكلات فهي ذات الطابع الفني الخالص. وإليك النموذج التالي:

إذا رفضنا تغليب المذكر على المؤنث في العبارة التالية:

«لا بد من أن ينشط علماء التربية والمفكرون والباحثون كغيرهم من العلماء في وضع الدراسات والنظريات التربوية والمناهج المطورة لمساعدة الدارسين على مواكبة هذا التطور والتقدم، ولكي يكونوا من ثم هم أنفسهم أداة تغيير وتقدم وتطور.....»

فإنه ينبغي أن نذكر الإناث كذلك فتصبح العبارة كما يلي:

«لا بد من أن ينشط علماء التربية وعالماتها والمفكرون والمفكرات والباحثون والباحثات كغيرهم/ كغيرهن من العلماء والعالمات في وضع الدراسات والنظريات التربوية والمناهج المطورة لمساعدة الدارسين والدارسات على... ولكي يكونوا/ يكن من ثم هم/ هن أنفسهم/ أنفسهن أداة...»

واضح أن ذكر المرأة في هذا النص بعد أن كان الكاتب قد تجاهلها، أحدث إرباكاً للفكرة كلها، وصدرت الفقرة فضفاضة مترهلة بما بدا حشواً -وما هو بحشو.. فماذا نفعل؟

من المؤكد أن مهمة تحرير نص لغوي جنسوي أصعب بكثير من وضع نص غير جنسوي. ولذلك لا يبدو أمام هيئة التحرير إلا إعادة صياغة الفقرة أعلاه، ويمكن أن يتم ذلك على النحو التالي:

«لا بد من أن ينشط أهل التربية والفكر والبحث لوضع الدراسات والنظريات التربوية والمناهج المطورة لمساعدة الدارسين والدارسات على مواكبة هذا التطور والتقدم والمساهمة في التغيير وإحداث التقدم»

2. **تختلف العربية عن الإنجليزية في** أن الأفعال تتغير بتغير (الفاعل) وهو ما يمكن تسميته (الألفاظ التابعة)، وأقصى ما نفعله في

الإنجليزية أن نضع إلى جانب (He) كلمة (She) دون أن يحدث أي تغيير في الفعل، فتستقيم العبارة

He/She does this job

أما في العربية فالمسألة أكثر تعقيداً، فعبارة مثل:

«هذه المادة موجهة إلى معلمي الصف الثالث الأساسي الذين يعلّمون في مدارس الوكالة»

ستصبح عند توخي العدل كما يلي:

«هذه المادة موجهة إلى معلمات / معلمي الصف الثالث الأساسي الذين يعلمون/ واللواتي يعملن في مدارس الوكالة».

وفي أحيان كثيرة تكثر الأفعال كثرة تتعب القلب، بحيث يصبح من الاستهجان والعبث إفساد التعبير بالمزاوجة الدائمة بين الأفعال المذكرة وأفعال التأنيث... وكذلك تكثر الصفات (النعوت)، ولأن الصفة في العربية تخضع -غالباً- للتأنيث والتذكير وتكتسب علامات التأنيث كما هي مقررة في اللغة، فإن نصاً يعتمد الصفات المذكرة سيثقل بمزاوجتها بالصفات المؤنثة.

وكذلك الأمر بالنسبة للضمائر والمعدود،..... وغير ذلك.

التغيير اللغوي عملياً:

مثال 1:

كتاب الدكتور سليمان الريحاني «التخلف العقلي»

- الواقع:

1- يدور الكتاب جميعه حول معالجة التخلف العقلي متمحوراً حول «المتخلف عقلياً».

2- يتوجه الكتاب في مجمله إلى مجتمع ذكوري، حيث يرمي المؤلف إلى الاختصار وتضمين الكلمة الذكرية الطيف

الأنثوي. فكلما ذكر المعلم، كان المعلم يقصد (والمعلمة)، وكلما قصد المتخلف عقلياً، كان يقصد (المتخلف عقلياً) -ما لم يشر السياق إلى غير ذلك-، وكلما ذكر المتخلفين عقلياً كان يقصد المتخلفات عقلياً أيضاً.

3- استخدم المؤلف كلمة (الوالدين) بتغليب المذكر على المؤنث. وهو يقصد الأمهات والآباء، مقابل المعلمين والمعلمات.

ومن أجل تحرير الكتاب من اللغة الجنسوية التي تشربها المؤلف من المجتمع والكتب المدرسية ووسائل الإعلام ومصادر المعرفة اللغوية، عن غير قصد، فإنه يمكن اللجوء إلى الإجراءات التالية، وهي إجراءات علاجية، ولا يمكن أن تكون جذرية، وإلا لتطلب الأمر إعادة صياغة الكتاب بمجمله. ونأمل أن يؤدي اهتمامنا بإنتاج المؤلف هذا إلى انتقال الاهتمام إليه بالعدوى وإيلاء هذا الجانب اللغوي عنايته وعناية طلبته الإناث والذكور على السواء.

مقترحات تعديل:

1- يمكن استخدام كلمة «أهل الإعاقة» كلما وردت كلمة «المعوقين» وأهل التخلف العقلي بدل «المتخلفين عقلياً».

2- يمكن ذكر المعلمات بعد المعلمين مباشرة، وعندئذ يؤنث الفعل كما في قاعدة التأنيث التي أشير إليها في الفصل الثاني.

3- يمكن ذكر «الآباء والأمهات» بدل «الوالدين»

4- يمكن اللجوء إلى المصدر بدل اسم الفاعل.

عبارة الكتاب	العبارة البديلة
التربية الخاصة للمتخلفين عقلياً	التربية الخاصة في مجال التخلف العقلي
أهداف تربية المتخلفين عقلياً	أهداف التربية في مجال التخلف العقلي
التأهيل المهني للمعوقين	التأهيل المهني في مجال الإعاقة (العقلية)

5- إضافة كلمة «بنات» إلى «أبناء» في العبارات المتكررة في ص (50)

٪ بين أبناء الطبقة العليا

بين أبناء الطبقة المتوسطة

بين أبناء الطبقة المتوسطة

بين أبناء الطبقة الدنيا

بحيث تصبح: بين أبناء وبنات الطبقة....

6- عند التصنيف التربوي (ص 103)

في الكتاب	مقترح بديل
«يصنّف التربويون المتخلفين عقلياً إلى فئات اعتماداً على قدرتهم على التعلم، وفي تصنيفهم هذا تظهر أربع فئات على الشكل التالي: - بطيء التعلم - القابل للتعلم - القابل للتدريب - الطفل الاعتمادي	«يصنف أهل التربية المتخلفين عقلياً والمتخلفات عقلياً إلى فئات تعتمد على القدرة على التعلم. وفي هذا التصنيف تظهر أربع فئات: - فئة بطء التعلم - فئة القابلية للتعلم - فئة القابلية للتدريب - فئة الاعتمادية

مثال 2:

مواد تعليمية مختارة من معهد التربية/ الأونروا.

- الواقع:

ينحو معدو ومعدات المواد التعليمية -على السواء- منحى لغوياً ذكورياً في إعداد هذه المواد. وهو ما دأبو ودأبن عليه إلى حين خضنا تجربة اللغة غير الجنسوية منذ عام 1993 في وحدة المواد التعليمية. وطلباً للموضوعية فقد اخترت مادة تعليمية من إعداد امرأة، تتوافر فيها كل عناصر اللغة الجنسوية.

«تعلـم وتعلـيم الطلبـة ذوي الاحتياجـات الخاصـة» مـن إعـداد الـدكتورة منـى الحديـدي (اسـتخدمت مـسودة المـادة قبـل مناقـشتها وتحريرها وطباعتها بشكل نهائي).

فمنذ العنوان الذي سيصبح:

«تعلـم وتعلـيم ذوي الاحتياجـات الخاصـة في المـدارس» أو «تعلـم وتعليم الطلاب/ الطالبات من أهل الاحتياجات الخاصة» سنجد أنفسنا في مواجهـة لغـة جنـسوية صـارخة، حيـث تتوجـه «النظـرة الـشاملة» إلى «العاملين في حقل التعليم» عن «الطلبة ذوي». حيث تقول:

«إن هـذه الورقـة تحـاول تقـديم الأفكـار الرئيـسية للمعلمـين في المدارس العاديـة وخاصـة معلمـي المرحلـة الابتدائيـة». (الحديـدي، 1994 ص 1)

وعنـدما تطلـب الكاتبـة مـن قـراء المـادة وقارئاتهـا نـشاطاً يـسبق حضور الحلقة الدراسية التي لم تتم فيها مناقشة المادة تحدد:

- أن يقرأ المعلمون التعيين.
- أن يقوم المعلمون بزيارة...

وعنـد توجيـه تعليمـات لقيـادة الحلقـة الدراسـية تقـدم ذلـك إلى «قـائد النشـاط» وأن يرافقه «المشـاركون في النـشاط» وغـني عـن القـول أن «المشـاركين» هؤلاء من الذكور والإناث.

إن معضلة اللغة الجنسوية أنها لغـة مهيمنـة، ينـصرف الـتفكير إلى التذكير، فلا شيء سواه، إلا إن اضطر السياق إلى غير ذلك.. ولذلك فإن المفـاهيم والتعريفـات والمـصطلحات تـصبغ آنئـذ صـبغة ذكوريـة لا فكـاك منها. فعنـد رغبـة الكاتبـة في تعريـف مفهـوم أهـل الاحتيـاجـات الخاصـة، تـسأل: «مـن هـم ذوو الاحتياجـات الخاصـة» وهـي تعـني ضـمناً «ذوات الاحتياجات الخاصة»، غير أن ذلك لا يظهر مع الأسف في لغـة المـادة ولا في صياغتها.

وإذا فرغنا من صب قيد ذكوري على المفاهيم، فإننا سنمضي بعيداً مع «الأخصائيين» ومع «الأطفال» و«دخولهم المدرسة» ومع «الطالب» وما يعانيه من مشكلات القراءة والكتابة.

وإذا شاءت الكاتبة الخروج من دائرة المذكر والمؤنث ذهبت إلى «الفرد» الذي يعامل معاملة المذكر، حيث تتبع الصفات والضمائر والأفعال هذا المذكر..

وهكذا تمضي المادة في توجيه الانتباه إلى المذكر من موضوع البحث، وإلى المذكر من المخاطبين والمخاطبات، وإلى المذكر من الأمثلة...

مقترحات تعديل:

بعد أن اقترحنا تعديل العنوان بما لا يخص جنساً دون آخر، فإن القائمة التالية تتضمن مقترحات أخرى في ضوء القلق الذي تفرغه اللغة الجنسوية في أذهان مستقبلها ومستقبلاتها ممن حصلن وعياً لغوياً خاصاً بهذا الاتجاه.

عبارة المادة	مقترحات تعديل
❖ إن اتجاهات العاملين في حقل التعليم نحو الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة تلعب دوراً مهماً في تحديد إمكانات نجاح العملية التربوية لهم.»	❖ إن اتجاهات العاملين والعاملات (أو اتجاهات العاملات والعاملين) في حقل التعليم نحو الطلاب والطالبات (أو الطالبات والطلاب) من أهل الاحتياجات الخاصة،... العملية التربوية للجميع.
❖ «أن يقرأ المعلمون التعيين.»	❖ «أن يقرأ المعلمون والمعلمات التعيين.» (أو أن يقرأ المعلمات والمعلمون)
❖ «أن يقوم قائد النشاط بزيارة.»	❖ أن يقوم قائد/ ة النشاط....

❖ «من هم ذوو الاحتياجات الخاصة؟»	❖ تعريف «الاحتياجات الخاصة»
❖ «تنقسم فئات ذووي الاحتياجات الخاصة...»	❖ تنقسم فئات الاحتياجات الخاصة.
❖ «بعد دخول الطفل المدرسة حيث يتوقع منه إتقان.....»	❖ بعد دخول الطفل والطفلة المدرسة حيث يتوقع منهما.....
- مثال: أن يستخدم الطالب الترقيم المناسب في رسالة إلى صديق.	-... أن يستخدم الطالب والطالبة... في رسالة إلى صديق/ ة.
❖ نشاط: يُحَضِّر المدرب خطة تربوية فردية لطالب، ويناقش المتدربين بمحتويات الخطة.....	❖ يحضر المدرب/ ة ..... لطالب/ ة ويناقش المتدربين/ ات.....

وفي مواد تعليمية آخرى ينحو الكتاب والكاتبات منحىً ذكورياً في إعداد أهداف المادة، من مثل:

«يتوقع من المتدربين الملتحقين بالدورة بلوغ النتاجات التعليمية التالية:

أن يتعرفوا إلى..، أن يحللوا..، أن يميزوا..، أن يطبقوا..، أن يقارنوا.. إلخ»

وقد حللنا مشكلة الأفعال باللجوء إلى المصادر من مثل:

«يتوقع من المتدربين/ ات الملتحقين/ ات...

التعرف، التحليل، التمييز، التطبيق، المقارنة... إلخ»

واستخدمنا مع المصادر فعل «القيام» مذكراً ومؤنثاً وتتلوه المصادر، من مثل:

«أن يقوم المتدربون والمتدربات بما يلي: الكتابة، الفحص، الاستقراء، الاستنتاج، التلخيص.... إلخ..»

وكلما وردت كلمة أو عبارة تشي بتحيز ضد الأنثى أعدنا صياغة العبارة بما يزيل آثار هذا التحيز قدر الإمكان. كما أننا استخدمنا المنحى الكمي في توزيع الأمثلة على الإناث والذكور بالقسطاط. فكلما ركزت المادة على (أحمد وعلي والمعلم، وزهير، وعمل الآباء) ذكرنا (زهرة وعُلَى والمعلّمة وعمل الأم...)

وغني عن القول أننا نحذف أية عبارة أو قول مأثور أو مثل أو اقتباس أو فكرة تسيء إلى المرأة من مثل:

- وكان يستشير حتى النساء»
- «وكانت عائشة رجلة الرأي» أي ذات رأي راجح كالرجال.
- «مثل الداية من بيت لبيت»
- «ثرثار كالنساء»
- «وهم في الحروب كالنساء»
- **المهن المناسبة للمرأة**: «التعليم والتمريض»... إلخ.

أمثلة جنسوية	مقترحات تعديل	ملاحظات
❖ تعتبر فترة المراهقة المبكرة مفترق طرق بين الطفولة والرجولة.	❖.. بين الطفولة والرشد.	
❖ تكوين شخصية الفرد وإعداده للمستقبل.	❖ تكوين شخصية الفرد وإعداده /ها للمستقبل.	❖ تعامل كلمة «فرد» معاملة المذكر والمؤنث.
❖ يدعى الكاتب للإجابة عن استفسارات أعضاء اللجنة.	❖ يدعى الكاتب/ ة... أعضاء/ عضوات اللجنة.	❖ تأنيث كلمة «عضو» التي كان يحظر تأنيثها بحسب قواعد اللغة العربية.

❖ يبحث مع الخبير موضوع...	❖ يبحث مع الخبير/ ة...	❖ ضرورة تأنيث الوظائف والمهن.
❖ حضر الأبوان النشاط المدرسي.	❖ حضرت الأم والأب النشاط المدرسي.	❖ في المثنى (الأبوان) تغليب لكلمة أب، وهي ظاهرة معروفة في العربية عند التثنية: القمران: القمر والشمس، العمران: أبو بكر، وعمر»... إلخ. وندعو إلى هجرها حتى لا يغلب جنسٌ الجنسَ الآخر.

تخليص كتب اللغة والنحو من الجنسوية

لا سبيل إلى إلغاء التراث اللغوي والنحوي العربي، بل لا يجوز إلغاؤه. ولكن التحقيق العصري القائم على فهم -لا لأصول التحقيق الفنية فحسب- بل على فهم لروح العدالة وحقوق الإنسان، هو الذي ينبغي أن يأخذ سبيله إلى كتب التراث. فكتاب ضخم مثل المخصص لابن سيده، لم يجد حتى الآن من علماء العربية وعالماتها من تحققه. وكذلك الحال بالنسبة للسان العرب والقاموس المحيط وغيرها من المعاجم الكبرى. وهذه الكتب ما تزال معيناً للفكر الذكوري يمتح منه الباحثون والباحثات بمخاطرة قبول ما قيل على أنه من المسلمات. فما لم ينهض أساتذة وأستاذات قديرات لمراجعة صورة الأنثى، وأبواب التأنيث والتذكير في هذه المجلدات العتيقة، بمنظور يحمل حساً مرهفاً وبصراً وبصيرة، فستظل هذه الكتب مصادر ومراجع مليئة بتسلط الذكر

واستعلائه، ودونية المرأة وصورة عجزها وسلبيتها.. مما يعني اكتمال شروط دائرة الحصار..

وعند مراجعة التراث اللغوي والنحوي العربي لا بد من الوقوف طويلاً عند القضايا التي يثيرها هذا الكتاب وغيرها. وسنصنفها في بابين:

- مظاهر ذكورية (جنسوية) في اللغة والنحو.
- مظاهر أنثوية (غير جنسوية) في اللغة والنحو.

مظاهر ذكورية في اللغة والنحو:

المظهر/ القاعدة	ملاحظات
1- «أسماء المؤنث كلها لا تُجَرّ إلا يسيراً من أسمائهم. نحو هند ودعد وجُمْل ونُعْم. وما لا يُجَرّ لا يدخله تنوين ولا خفض... فإن قال قائل: لم صارت الأسماء المؤنثة لا تجري، قيل له: منعتها العرب الإجراء في المعرفة لعلتين توجبان لها الثقل: إحداهما التعريف، والتعريف يثقل الاسم: فإن زالت إحدى العلتين جُرَّ الاسم. كقيلك: قامت نُوارُ ونوارٌ أخرى، وقعدت زينب وزينبٌ أخرى، لم تجر زينبُ الأولى لأنها معرفة وأجريت الثانية لأنها نكرة. فإن قيل: لم صارت الأسماء المؤنثة أثقل من المذكرة؟ قيل له: العلة في هذا أن العرب تكثر استعمال أسماء الرجال،	1- تدور القاعدة حول أن التأنيث سبب منع الأسماء من الصرف لثقلها وصونها، في حين أن أسماء الرجال تصرف لخفتها، ولكثرة استعمالها ودورانها في اللسان العربي. فالثقل جاء التأنيث إذاً من الموقف الاجتماعي من المرأة، فصون أسماء النساء (أي اعتبارها عورة ينبغي إخفاؤها وحفظها وصونها) لم يعد وارداً في هذا العصر، حيث تعلن أسماء النساء في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام المختلفة، وإعلانها جزء أساسي من مظاهر الحياة العصرية، فأسماء الناجحات في الامتحانات، وأسماء المدعوات لمقابلات من أجل التوظيف، وأسماء

وترددها في الكتب والأنساب، فيقولون فلانٌ بنُ فلان، ولا يقولون: فلانٌ بنُ فلانة بنت فلان، لصيانتهم أسماء النساء وقلة استعمالهم لها، فلما كان ذلك كذلك، كان الذي يكثرون استعماله أخف على ألسنتهم من الذين يقلون استعماله. هذا مذهب الفراء». (ابن الأنباري، المذكر والمؤنث، ص 123- 128)	الملتحقات بالجامعات أو الدراسات العليا، وعلى نقط التفتيش والحدود ورقابة السير والأمن تعلن أسماء النساء ولا تصان، فإن سقط الصون سبباً في الثقل، وكذلك قلة الاستعمال.. ولذلك صار لزاماً أن تصرف الأسماء المؤنثة لخفتها وشيوع استعمالها ودورانها. وعندئذ نقول: وهذا مذهب النسويات.
2- تُجَرُّ (أي تصرف) الأسماء المؤنثة إذا سمي به الرجال، لأن الثقل في التأنيث، فإذا سمي رجل بحائض أو طالق أو صامت صرف «لأنها مذكرة وصف بها المؤنث كما يوصف المذكر» (ابن الأنباري. المذكر والمؤنث، ص 134- 135)	2- يسقط هذا التعليل أيضاً لأنه يميز الرجال على النساء. ناهيك عن أنه افتراض سخيف ونادر الحدوث.
3- تقول العرب: رجل بالغ، ورجل سافر، إذا سفر عن وجهه، وإمرأة سافر، ورجل أيم وامرأة أيم، ورجل عاشق، وامرأة عاشق، (فلا يدخلون الهاء في نعت الأنثى، وهو نعت يشترك فيه الرجال والنساء... والسبب أن «بالغاً وسافراً وعاشقاً نعوت مذكرة وصف بهن الإناث فلم	3- يبدو أن النعوت المشتركة في التأنيث والتذكير هي مرحلة تاريخية سابقة على تمييز الرجل والمرأة للفروق البيولوجية والفسيولوجية بينهما. فهي شواهد حقبة موغلة فيما قبل التاريخ. أما التعليلات التي ساقها ابن الأنباري وسواء أن أصل هذه

يـؤنثن، إذ كـان أصـلهن التـذكير.
والدليل على أن أصلهن التذكير أن
الرجـال يوصـفون بهـذه الأوصـاف
أكثر مما يوصف بهن النساء. وذلك
أن قـولهم: رجـل سـافر أكثـر مـن
قـولهم:امـرأة سـافر. وقـولهم رجـل
بـالغ أكثـر مـن قـولهم: امـرأة بـالغ،
لأنهـم إذا أرادوا أن يـصفوا المـرأة
بهـذا قـالوا: مُعصر، فـلا يـدخلون
الهاء في مُعصر. لأنه لاحظ للرجال
فيهـا. ويقـال قـد أعـصرت المـرأة
أدركت.

... وقـولهم: امـرأة عـانس، لم
يـدخلوا فيـه علامـة التأنيـث لأن
النـساء أغلـب علـى هـذا الوصـف،
فـصار بمنزلـة طـالق وحـائض.
وقولهم: رجل أيم إذا كان لا زوج له،
وامـرأةٌ أيم إذا كانـت لا زوج لهـا. لم
يـدخلوا الهـاء في نعـت الأنثـى لأن
الغالب علـى هـذا الوصـف أن يكون
للمؤنـث فكـان بمنزلـة قـولهم: هنـد
حائض، وجمل طالق»

(ابن الأنباري، المذكر والمؤنث، ص 143-145)

النعـوت التـذكير، فهـو مـن بـاب
الاجتـهاد النحـوي -لا غـير- وهـو
اجتهاد رأينا أنه مغمس بقيم الثقافة
الأبويـة الذكوريـة، ولـذلك لا يلزمنـا
الأخـذ بـه. فلـم يعـد صـحيحاً أن
السفور حكـر علـى الرجـال، في هـذا
العـصر. فالنـساء أيضاً سـافرات إلا
في بعض البيئات الضيقة المحدودة
عدداً وانتشاراً.

ومـع أن اللغـة تحتمـل إدخـال الهـاء
(التـاء المربوطـة) علـى هـذه النعـوت
لتمييزهـا بالتأنيـث، إلا أننـي أميـل
إلى الاحتفـاظ بظـاهرة النعـوت
المـشتركة هـذه، مـع العـدول عـن
تفسير النحويين التقليدي. فالعشق
ليس حكراً على جنس دون آخر.

كمـا أن أيـم ليـست غالبـة في وصـف
المؤنث، فهذا ضير وضيم على الأنثى
أن تظـل أيمـاً -بـلا زوج- في حـين
يسمح للذكر بالزواج متى شـاء، وبذا
لا تلحق أيم بنعوت الأنثى الخالصة:
حـائض وطامـث. وتعليقنـا علـى
طامث.

وتعليقنـا علـى طـالق، ورد في مكان
آخر في هذا الكتاب:

ولا أدري من أين جاء ابن الأنباري
بأن نعت (عانس) أغلب في النساء.

	وقد اقترحنا حذف هذه الكلمة من الاستعمال اللغوي الحديث، لارتباطها بالوصم الاجتماعي. أما مُعصر، فأقترح استعمالها للإناث والذكور على حد سواء، بمعنى من لاحظ للنساء فيه ولاحظ للرجال فيها. وأن تتحدد عمراً بما بعد الستين، قابلاً للتغيير بحسب تغير نظرة المجتمع لمفهوم حقبة الشباب.

مظاهر أنثوية (غير جنسوية) في اللغة والنحو:

المظهر/القاعدة	ملاحظات
1- ما يكون للمذكر والمؤنث والاثنين والجميع باتفاق من لفظه ومعناه: الصديق، الرسول، الضيف، الطفل، العدل، النوح، العدو، الجُنُب، الإنسان... إلخ. (ابن الأنباري، المذكر والمؤنث، ص 234-260) 2- كل الجموع مؤنثة.	- يبدو أن هذه المفردات التي يستوي فيها المذكر والمؤنث والاثنان والاثنتان وجمع التأنيث وجمع التذكير مفردات قادمة من تلك الحقبة البعيدة التي لم يكن التمييز قائماً. ولعل الاحتفاظ ببعض هذه المفردات يمنح اللغة بُعْدَها الضارب في المجهول. ما عدا بعض التحفظات على بعض المفردات مثل: الإنسان، الطفل، الرسول لشيوعها من جهة، ولارتباط كلمة (رسول) في أذهان الناس بالرسالة الإلهية واقتصارها على الذكور.

الفصل الخامس

مســـرد

ألفاظ وعبارات وتراكيب جنسوية وبدائلها

لا يمكن تغطية العبارات والألفاظ والتراكيب التي تتضح بجنسويتها في اللغة العربية، ولذلك سيكتفي هذا الفصل بإيراد نماذج وأمثلة من هذه العبارات والألفاظ والتراكيب مع بيان أسباب جنسويتها، وتقديم بدائل يمكن اقتراح مزيد عليها

1- في مجال الصفات الجسدية:

عبارات/ ألفاظ جنسوية	بدائل	ملاحظات
❖عجوز شمطاء -عجوز دردبيس.	❖سيدة مسنة، سيدة شيخة.	❖تستخدم تحقيراً للمرأة عندما تتقدم في العمر، ووصمها بالبشاعة وهذا ما ليس شائعاً في وصف الرجل المتقدم في العمر.
❖جميلة كالدمية	❖جميلة.	❖ تشييء المرأة في تشبيهها بالدمية مع أن تشبيه المرأة بالدمية في العربية قديماً كان يحمل مضامين إيجابية، فالدمى هي التماثيل، والتماثيل هي تماثيل الآلهة

		المعبودة.. فلم يبعدوا أن شبهوا المـرأة بـالمعبود. غـير أن الاستعمال الحديث لكلمة دمية يعـني تلـك الـتي يلـهو بهـا الأطفال، وهي أشياء لا تحظى إلا بمحبة الأطفال واستخفاف الراشدات والراشدين.
❖فتـاة عـذراء، غابـة عـذراء (بكر).	❖غابـة لم يمـسها بشر.	❖والعذراء من النساء: التي لم يمسسها رجل. والاسم العذرة. وأبو عذرها: مفتضها» (المخصص 3: 154)، ولا يوجد في اللغة وصف من الاشتقاق نفـسه، للرجـل الـذي لم تمسسه المرأة، باعتبار أن فعل الجمـاع فعـل ذكـوري يـتم بمبادرة ذكورية.
❖ناعمة	❖امـرأة لطيفـة، امرأة في طبعها رقة، امرأة رقيقة المظهر، شابة. - رجل لطيف، رجل رقيق المظهر، شاب.	❖«الناعمـة... هـي الفتـاة الـشابة» (المخـصص 3: 155) ولـيس لهـذا النعـت مثيـل للذكور، بل يعتبر نعت «ناعم» إساءة وسباً للرجل إذا وصف بـه. كما أن المرأة التي ليست بناعمـة (سـواء مـن حيـث الشكل أو السلوك أو السن) لا تحظى بإطراء المجتمع.

2- في مجال الصفات النفسية/ الوجدانية

عبارات/ ألفاظ جنسوية	بدائل	ملاحظات
- التضحية واجب على الأم/المرأة/ الزوجة	- التضحية واجب على الأم والأب عند الضرورة. وللأم والأب حقوق على الأبناء والبنات احترامها.	- تكريس صورة المرأة المضحيّة، وقصر التضحية على المرأة فقط. وهذا شكل مستتر من أشكال الابتعاد.
- شَموس.		- «والشَّموس التي لا تطالع الرجال ولا تطعمهم» (المخصص 6:4) وكأن العلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة الذئب بالحملان.
- امرأة مُحْصنة ومُحّصَنة وحَصان.	- امرأة مُحْصنة ورجل محصن. امرأة حَصان ورجلٌ حَصان (بالمعنى نفسه دون تبديل).	- وهي الحرّة ما لم تفضح نفسها بريبة، ورجل مُحصَن ومحصن وحصين: وهو الذي قد تزوّج» (المخصص 5:4) فلننظر كيف لا يوضع الرجل موضع الريبة، فإذا اشترك مع الأنثى في لفظه كان له معنى مختلف ينسجم وموقفه في المجتمع.

- رزان.	- امرأة رزان ورجل رزان.	- «الرزينة وهو العاقلة اللازمة لمقعدها» (المخصص 5:4) وهذه من صفات النساء فقط.

3- في المجال الاجتماعي:

أ . المهن:

❖ النائب توجان فيصل. ❖ تعمل (فلانة) أميناً عاماً لوزارة الثقافة.	- النائبة توجان فيصل. - تعمل (فلانة) أمينة عامة لوزارة الثقافة.	- فالنائب قياس على مهن ذَكَر النحاة أنها لا تؤنث حتى لو مارستها النساء مثل: وكيل، أمير... وذلك بسبب قلة من مارستها من النساء. ونحن لا نحاكم المهنة بغلبة من يمارسها من الجنسين، وإلا لكان علينا أن نذكر جميع المهن بما فيها التعليم، لان معظم (الممارسين) ذكور. ولا ضرورة للحرج الذي نشعره من المعاني الأخرى لكلمة «نائبة» وهي المصيبة. فالسياق كفعل بالتمحيص والفرز.
❖ رتب الجيش والأمن العام للنساء: نقيب، وكيل، عقيد...	- نقيبة، وكيلة، عقيدة.	- سيبدو التأنيث غريباً لعدم شيوعه فقط.. ألم يكن منصب وزير قصراً على الذكور حتى احتلته المرأة وصارت «وزيرة»؟

❖ (فلانة) عضو الاتحاد النسائي ورابطة الكتّاب.	- عضوة.	
❖ (رابعة) إمام العاشقات.	- إمامة.	

ب. الوضع الاجتماعي:

❖ السيدة سهى عرفات.	❖ السيدة سهى الطويل.	❖ وهذا من باب تعريف المرأة بزوجها وتعزيز تبعيّتها. ألا يكفي أن المرأة تنسب إلى أبيها دون أمها فقط، حتى تنزع اسمها عند الزواج؟
❖ الآنسة رنا الحسيني صحفية جادة.	❖ السيدة رنا الحسيني أو: رنا الحسيني صحفية جادة... أو: الصحفية رنا الحسيني صحفية جادة...	❖ نطلق كلمة سيدة على كل امرأة مهما كان وضعها الاجتماعي عزباء أو متزوجة أو طليقة. فلا يولد الذكر سيّداً، بينما تحصل المرأة على لقب السيادة عندما تتنازل عنها بعقد الزواج.
- السيدة دعد عقيلة الدكتور تيسير سرحان.	- السيدة دعد الأيوبي، رئيسة نادي المرأة.	- تعريف المرأة بما هي أو بمهنتها، لا بزوجها. «العقيلة من النساء: الكريمة وقيل هي التي خُدِّرت، مشتقّ من العَقْل وهو الحبس» (المخصص 5:4)

❖ زليخة كريمة الشيخ عبد الرحمن أبو ريشة.	❖ زليخة ابنه عبد الرحمن أبو ريشة وآمنة الشيخ علي.	❖ «كريمة» نعت تختص به البنات دون الأبناء، وفيه تأكيد على فكرة الصون التي يخصصونها للنساء دون الرجال، مما يشي بمعتقد أن المرأة غير قادرة على صون نفسها بنفسها.
❖ فلانة مطلّقة فلان.	❖ فلانة طليقة أو فلانة مطلّقة... (بكسر اللام).	❖ إذ إن كل امرأة حصلت على الطلاق -بحسب المجتمع الذكوري- إنما وقع عليها فعل التطليق من الرجل. ولذلك استخدمت الكلمة بصيغة اسم المفعول. والصحيح أن في الحياة من تطلِّق (بكسر اللام) وتطلَّق (بفتح اللام). وخير من هذا وذاك تحديد الوضع الاجتماعي إذا كان مطلوباً في وثيقة رسمية أو ما شابه، بكلمة «طليقة» التي تعني التحرر من قيد السلطة الذكورية وفيها معنى الإرادة.
❖ امرأة طالق.	❖ امرأة طالقة.	❖ فقد منعوا تأنيث الكلمة بالتاء لأن المرأة لا تطلّق نفسها بل يطلّقها الرجل. والرجل لا يطلَّق بل يطلِّق.

		فما احتاجه النعت إلى أداة تأنيث مثل القول (حائض) إذ لا يحيض الرجل.
❖ عانس.	❖ عزباء، لم يسبق لها الزواج.	❖ لا يكاد يوجد في اللغة كلمة أقسى على المرأة من هذه. فهي لا تصف المرأة بأنها لم تتزوج فحسب، بل تصمها بذلك. يجب شطب هذه الكلمة من القاموس العربي والاستعمال اللغوي. ولا يبقى منها إلا ما يبقى منها إلا ما يبقى في المتاحف عادة. لتذكّر بقسوة الذكورة على المرأة عندما تتسلل إليها من اللغة.
❖ فلان حرم فلان.	❖ تذكر المرأة باسمها.	❖ كلمة عقيلة وحرم وسواها إنما تعزز ملكية الرجل للمرأة ووقوعها في حمايته وكأنها عورة ونقطة ضعفه.
❖ أهدى أبو محمد ابنته سلمى إلى خالد.	❖ سلمى تزوجت خالداً. ❖ سلمى وخالد تزوجا.	❖ الهدية من أسماء العروس (المخصص 19:4)، وسميت كذلك لأنها تُهدى من أبيها إلى زوجها. وهل من تشييء للمرأة بعد هذا!!!! والسياق يشير إلى أن الحديث

		عن المرأة ولذلك ينبغي الاستمرار في وصف أفعالها لا في وصفها كمفعول بها.
❖ وعملت خمس سنوات في الكويت، ثم تزوّجها بعد ذلك رجل من بلدتها.	❖ وتزوجت بعد ذلك رجلاً من بلدتها.	❖ وكأن فعل الزواج إنما يختص بالرجال وحق من حقوقهم دون النساء. وكأن ليس للمرأة من إرادة في هذا إنما يقع عليها الفعل وقوع القضاء والقدر. خصوصاً أنّ السياق يشير إلى أنها -أي المرأة- محور الحديث.
❖ خطبها ابن جار لهم.	❖ خطبت ابنَ الجيران. - أعلنت خطبتها على ابن الجيران.	
❖ وكانت تحت سيد من سادات العرب.	❖ وكانت تزوجت سيداً من سادات العرب.	❖ يشيع هذا التعبير (كانت تحت) ليعني أنها كانت زوجة لأحدهم. وفي هذا التعبير ما فيه من تعزيز لدونية المرأة. فكل المعاني التي تحملها (تحت) معان استعلائية...هذا بالإضافة إلى الإيماءة الجنسية التقليدية.

4- في عموم التأنيث والتذكير:

❖ منَ النساء مَن يقوم.	- من النساء من تقوم.	❖ يرى النحاة أنه يجوز (يقوم) بتذكير الفعل لأن مَنْ «لفظُها لفظٌ واحد مذكّر (ابن الأنباري ص 664)، أو (تقوم) بتأنيث الفعل لمعنى مَنْ، لان معناها معنى التأنيث. ونحن نرى أن تتبع مَنْ المؤنث في التأنيث، والمذكّر في التذكير، وذلك عند التجاور، وعندئذ لا تغليب.
❖ أي الفتاتين قام. ❖ كل الفتيات قائم.	❖ أي الفتاتين قامت. ❖ كل الفتيات قائمات.	❖ وكذلك: أي، وما، وبعض، وكلّ، وغير، ومثْل، وكلنا.
❖ الرجل والمرأة قاما.	❖ قام الرجل وقامت المرأة، أو الرجل قام والمرأة قامت...	❖ فإنما يستشهدون على تغليب المذكر على المؤنث بمثل هذا المثال. على أساس أن المذكّر هو الأصل، وما هو بالأصل. ولذا نقترح -تلافياً لدغم المرأة في ظلال الرجل- أن يؤخّر الفعل في مثل هذه الحالة.

❖ قام المحمدون والهنداتُ العاقلون.	❖ قام المحمدون العاقلون والهندات العاقلات.	❖ لا ضيرَ في تذكير الفعل (قام)، فهذا ليس من باب التغليب، إذ في العربية يستخدم الفعل مؤنثاً مع جموع المذكر، وهو أفصح فنقول: جاءت الرجال، كما يصح: جاء الرجال.
❖ المرأة إنسان.	❖ المرأة إنسانة.	❖ يجوز في العربية تأنيث إنسان بالتاء. مع ان الكلمة تعني المذكّر والمؤنث والمفرد والجمع مثل (طفل). ولكن حرصاً على إثراء اللغة بتتبع أميز الفروق، وحرصاً على هوية الأنثى، نستخدم هذه الكلمة المهجورة.
❖ امرأة عطشانة.	❖ امرأة عطشى.	❖ إضافة التاء إلى وزن (فَعْلان) يعني الاعتراف بأنّ المذكر هو الأصل. فالألف والنون من علامات التذكير في النعوت. وما دام المؤنث (فَعْلى) متاح، فما حاجتنا إلى تعزيز (المذكّر هو الأصل)؟ هذا، ووزن فَعْلى يشي بأنه هو الأصل، إذا أقررنا بأن زيادة الحروف إنما لإضفاء معنى التذكير.

- اتّسع الطريق (السبيل).	- اتسعت الطريق (السبيل).	- ترى العرب أن (الطريق) يجوز فيها التأنيث والتذكير. ولكننا نميل إلى تأنيثها لأن الطريق في الأرض والطبيعة. والأرض وكذلك الطبيعة أنثى بإطلاق. وفي سعينا إلى تأنيث اللغة سنجد حيزاً لحسم الحيرة في الكلمات التي يجوز فيها التأنيث ويجوز التذكير. هذه الحيرة المتأتية عن لهجات. ومثل كلمة الطريق: السبيل، الروح، النفس، الحال، السوق، إذ جميعها في مذهبي مؤنثة. أما اللسان فمذكّر، وكذلك العاتق والقفا. (انظر: الجعبري، 1991، تدميث التذكير، ص30).
❖ فلانة زوج فلان.	❖ فلانة زوجة فلان أو فلانة وفلان زوجان.	
❖ هي رسولي إليك.	❖ هي رسولتي إليك.	❖ فتذكير رسول، من أن حمل الرسالة لا يكون إلا من ذكر. فما دامت تحملها امرأة فما مانع التأنيث بإظهاره إذاً؟ مع العلم أن (رسول) يجوز فيها

		معنى التثنية والجمع أيضاً. ومثل ذلك عَدْل (بمعنى عادل)، نقول: رجل عَدْل ورجال عَدْل: وكذلك حَمْد (أي محمود/محمودة)، وضيف، ومَحْض، وقَزَم، وخيار، وقُح (تدميث التذكير ص34).
❖ انظر: المرجع السابق.	❖ انظر: المرجع السابق أو: انظر/ي: المرجع السابق.	❖ نجد هذا التعبير في أصول التوثيق العلمي. وانظر للمخاطب المذكّر. وحتى لا ننحاز لجنس دون آخر، فيستحسن أن نستخدم ضمير المتكلّم الجمع (إذ يستوي فيه المؤنث والمذكر) أو نضيف ياء المخاطبة بعد الشرطة المائلة، كما هو مبيّن.
❖ والقراء يعلمون.	❖ والقراء والقارئات يعلمن.	❖ إذ يصح في العربية أن يؤنث الفعل إذا أتى تالياً بعد التأنيث على أنه تابع له، كما يجوز التذكير على أنه تابع للمعطوف عليه إذا كان مذكراً. ولأن استخدامنا اللغوي يفيض بالأفعال المذكّرة فإننا ندعو إلى استخدام الأفعال إذا أتت بعد مؤنث كما في المثال.

❖ محمود درويش شاعر فحل. ❖ كان شعراء الجاهلية المعلّقات من فحول الشعراء في الجاهلية.	❖ محمود درويش شاعر كبير. ❖ شعراء المعلّقات من كبار شعراء الجاهلية.	❖ يستخدم مفهوم الفحولة للتعبير عن الأهمية الخاصة لبعض الذكور وتميزهم، فثمّة فحول شعراء وفحول كتابة وفحول صحافة وفحول سياسة وفحول علم (اللسان: فحل).
❖ النساء النصف الحلو.	❖ النساء نصف المجتمع.	❖ يحلو لبعض الرجال التقرّب من النساء بتدليعهن بهذا التعبير المبتذل. وكثيراً ما تسمعه في مناسبات ومواقف رسمية، وهو حصر للمرأة في صورة واحدة، فلا تكون امرأة ما لم تكن جميلة... وليس في المرأة ما يهم سوى جمالها.
❖ الجنس الآخر.	❖ النساء.	❖ عندما نكني عن النساء بعبارة الجنس الآخر نكون أكدنا أن الجنس الأول هم الذكور. وفي هذا ما فيه من تراتبية، وتفضيل لجنس على آخر، والأولى أن لا يكون ثمة ترقيم أو ترتيب، بل نقول جنس الذكر وجنس الأنثى، أو النساء والرجال... إلا إذا اقتضى السياق غير ذلك.



المصادر والمراجع

بالعربية:

1. أحرشاو، الغالي، 1993، الطفل واللغة: تأطير نظري ومنهجي، بيروت، المركز الثقافي العربي.

2. إلياد، مرسيا، المقدس والدنيوي: رمزية الطقس والأسطورة، (ترجمة نهاد وخياط)، دمشق، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1.

3. ابن الأنباري (أبو بكر محمد بن القاسم)، 1978، كتاب المذكر والمؤنث، (تحقيق طارق عبدعون الجنابي)، بغداد، وزارة الأوقاف، ط1.

4. ابن الأنباري، أبو البركات، 1970، البلغة في الفروق بين المذكر والمؤنث، (تحقيق د. رمضان عبد التواب)، القاهرة، مطبعة دار الكتب.

5. بركات، ابراهيم، 1988، التأنيث في اللغة العربية، القاهرة، دار الوفاء، ط1.

6. جارودي، روجيه، 1985، مستقبل المرأة، (ترجمة محمود هاشم الودرني)، اللاذقية، سوريا، دار الحوار.

7. الجعبري، إبراهيم عمر، 1991، تدميث التذكير في التأنيث والتذكير، (شرح وتحقيق د. محمد عامر أحمد حسن)، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

8. جعفر، عبد الرزاق، 1985، الحكاية الساحرة: دراسة في أدب الأطفال، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.

9. الحديدي، علي، 1982، في أدب الأطفال، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، ط3.

10. الخشت، محمد عثمان، 1985، وليس للذكر كالأنثى، القاهرة، مكتبة القرآن.

11. السواح، فراس، 1986، لغز عشتار: الألوهية المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، قبرص، سومر للدراسات والنشر والتوزيع، ط2.

12. 1986، مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة، سورية وبلاد الرافدين، نيقوسيا، سومر للدراسات والنشر والتوزيع، ط6.

13. ابن سيده، 1978، المخصص، بيروت، دار الفكر.

14. شعراوي، محمد متولي، 1979، المرأة المسلمة والطريق إلى الله، القاهرة، مكتبة القرآن.

15. شوي، أورزولا، 1982، أصل الفروق بين الجنسين، (ترجمة بو علي ياسين)، بيروت، دار التنوير -للطباعة والنشر.

16. عمايرة، إسماعيل أحمد، 1993، ظاهرة التأنيث في اللغة العربية واللغات السامية: دراسة لغوية تأصيلية، الأردن، دار حزين.

17. غرير، جيرمين، 1981، المرأة المدجنة، (ترجمة هنريت عبودي)، بيروت، دار الطليعة.

18. الغنوشي، راشد، 1988، المرأة المسلمة في تونس، الكويت، دار القلم، ط1. 19. فريشاور، بول، 1988، الجنس في العالم القديم، (ترجمة فائق دحدوح)، دمشق، دار الكندي للترجمة والنشر والتوزيع، ط1.

20. قطب، سيد، د. ت، في ظلال القرآن، بيروت، دار الشروق.

21. القيم، علي، 1987، المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1.

22. كنفاني، غسان، 1985، القنديل الصغير، سلسلة الأفق الجديد، بيروت، دار الفتى العربي، ط4.

23. ابن منظور، لسان العرب.

24. الموسى، نهاد، 1987، قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، عمان، دار الفكر.

25. ميشيل، أندريه، 1986، لا للنماذج في أدوار المرأة والرجل، إزالة

الجنسوية من أدب الأطفال، منشورات اليونسكو، باريس، طبع مؤسسة دار الأبحاث الاقتصادية (بيروت).

26. نجيب، أحمد، 1968، فن الكتابة للأطفال، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

27. الهيتي، هادي نعمان، 1986، أدب الأطفال: فلسفته:فنونه، وسائطه، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

28. 1988، ثقافة الأطفال، (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

بالإنجليزية:

1. Abu-Nasr, Julinda & others, 1983, **Identification and Elimination of Sex Stereotypes in and from School Textbooks.** Institute for Women's Studies in the Arab Word, Beirut University Collage, Beirut.

2. Brahim, M.Hassan, 1973, **Grammatical Gender,** Montan, The Hague, Paris.

3. Krammarae, Cheris & Treichler, Paula A., 1992, **Amazons, Bluestocking and Crones,** Pandora Press, London.

4. Pogrebin Lottycottin'ed., 1983, **Stories For Free Children**, Megrow Hill, New York.

5. Sellers, Susan, **Sexual Difference: Feminist Writing in France,** MaCmillan, London.

6. Spender, Dale, 1985, **Man Made Language,** Routledge & Kegan Paul, London, 2ed ed.

7. Steirem, Gloria & Progrohim, Letty Cottin, 1974, **Free to Be.. you and Me,** MacGrow-Hill Book Company, New York.

نموذج للتعرف إلى الجنسوية في أدب الطفل(*)

كتاب: قصص، شعر (أناشيد)، مسرحيات، رواية تعليم، موسوعة، (توضع دائرة)

- مجلة..................................
- برنامج إذاعي..............................
- برنامج تلفازي.............................
- مسرحية...................................
- وسيطة أخرى...............................

(توضح √عند المناسب) ....

- عنوان المادة:.......................................
- مكان الطباعة وسنتها..........................
- عنوان المادة..
- اسم معد المادة (الكاتب، المخرج... إلخ): ....
- اسم المرجع: ....
- التاريخ..

1. تحليل مقارن للدلالات على الذكر والأنثى:

1:1 عدد هي/ هو

	نساء	رجال	حيوانات
	فتيات	فتيان	ذكر أنثى
العناوين			
النصوص			
الرسوم			
الإيماء والتمثيل			

(*) نموذج معدّل عن نموذج أندريه ميشيل: 50.

2:1 **عدد الفتيات/ الفتيان:** العناوين
النصوص
الرسوم
الإيماء والتمثيل

3:1 **عدد النساء/ الرجال** العناوين
النصوص
الرسوم
الإيماء والتمثيل

2. تحليل مقارن للصفات الجسدية
ذات المدلول الثقافي التمييزي:

1:2 الصفات التقليدية:

2:2 الصفات غير التقليدية:

3. تحليل مقارن للنشاطات التي يمارسها كل من الذكور والإناث:

1:3 نشاطات تقليدية:

1:1:3 في العائلة والمدرسة

2:1:3 نشاطات مهنية

3:1:3 نشاطات ترفيهية ورياضية

4:1:3 نشاطات اجتماعية وسياسية

5:1:3 نشاطات هوايات وحرف

4. تحليل مقارن للسمات النفسية والسلوكات الانفعالية للذكور والإناث:

1:4 تقليدية:

2:4 غير تقليدية:

الملحق (2)

قائمة بوظائف ومهن نمطية تقليدية للجنسين في الوطن العربي[1]

للنساء	للرجال
خادمة	مزارع
ربة بيت	صياد
عاملة تنظيف	بائع
مضيفة	تاجر
بائعة	رب عمل
فلاحة	سائق
سكرتيرة	خبّاز
ممرضة	لحّام
مذيعة	نجّار
عاملة هاتف	كهربائي
معلّمة (ابتدائي، إعدادي، ثانوي فقط)	مهندس
عارضة أزياء	طبيب
خيّاطة	معلّم
آذنة	أستاذ جامعة
قابلة	رئيس جامعة

[1] معدّلة عن قائمة بعض الوظائف المصنّفة تقليدياً وفق «الجنس» أندريه ميشيل: 78.

مدير مدرسة

مذيع

خيّاط

صحفي

شرطي

رئيس دولة: ملك، رئيس، أمير

جندي

سياسي

وزير

مدير قسم

بوّاب

ميكانيكي سيارات/ طيارات... إلخ

قائد جيش

قائمة بالسمات التقليدية النمطية للأنوثة والرجولة من منظور عربي شائع[1]

الأنوثة	الرجولة
جمال الوجه ❖: جميلة	الوسامة (الجمال ليس مهماً للرجل) (لا يوصف الرجل بالجمال)
البضاضة ❖	متانة البنية
اعتدال القوام واعتدال الطول ❖	طول القامة
الشباب أو الفتوة ❖	(غير مهم) (ابن الشين يتزوّج في أي وقت)
التكسّر واللين ❖	التماسك
الأناقة والترتيب ❖[2]	
حنون ❖	شديد
مضحيّة ❖	
صابرة ❖	

❖ ما عليها نجمة تكون صفة مستحبة في المرأة من منظور شائع.

[1] قائمة معدّلة جولندا أبو نصر لائحة لاكتشاف التمييز الجنسوي في الكتب –الدليل– وعن أندريه ميشيل.

[2] هذه الصفة مختلف عليها. ففي حي أن قريب المرأة (الأب، الأخ، الزوج، الابن) لا يرغب عموماً في المجتمع العربي في ممارسة المرأة لذاتها المظهرية في ملأ من الناس. يميل الذكور خارج مؤسسة العائلة إلى المرأة ذات الزينة الحسنة.

ناكرة للذات ❖	
مخلصة ❖	(الإخلاص غير مهم، المهم قيامه بواجباته تجاه أسرته)
لطيفة ❖	عدواني
عاطفية ❖	عقلاني
خانعة ❖	ذو كبرياء
مستسلمة ❖	متسلّط
مطيعة ❖	آمر
اتكّالية ❖	يعتمد عليه
حسّاسة	فظ
سريعة البكاء	مسيطر على انفعالاته، لا يبكي
ثرثارة	كل كلمة في مكانها
فضوليّة	
محترمة ❖	محترم (برغم كل نزواته)
متديّنة ❖	
مستهلكة	اقتصادي، مدبّر
سخيفة التفكير	منظّم التفكير
محدودة القدرات العقلية ❖	عاقل، مفكّر
تخاف بسرعة	شجاع
ضعيفة لا تقدر على مواجهة الحياة❖	مقدام
مقلّدة	مبدع
مبذّرة	كريم
جبانة	مغامر
تابعة	قيادي/ مستقل
تفشي السر	كتوم
فوضوية	
غير مسؤولة /لا تتحمل المسؤولية	متعاون

لا تحترم المواعيد	منضبط / يحترم المواعيد
	شهم
تهتم بسفاسف الأمور	يهتم بعظائم الأمور (السياسة، أحوال العالم)
مستهترة في العمل	مجدٌ في العمل
سلبية	بنّاء/ إيجابي
منتظرة	مبادر
قنوع	طموح

ألعاب

التمييز بين الجنسين يبدأ مع الطفولة...



٢

فتاة تلعب بدمية.
فتى يلعب بمكعّبات



٣

فتيات وفتيان يلعبون
منفصلين ألعاباً مختلفة



٦

فتى يجدّف وفتاة تتأمل حولها



٤

فتاة تسير على قدميها



٥

فتى يمتطي درّاجة



فتيات وفتيان يلعبون معاً



فتيات وفتيان يعزفون في نفس الفرقة



فتاتان تمارسان أعمالاً خشبية



فتاة وفتى يمارسان الخياطة

الأعمال المنزلية

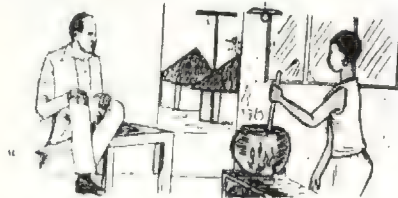
فقط الأمهات والفتيات يقمن بتدبير المنزل



الأب يشاهد كرة القدم على التلفزيون، في حين تمسح الأم أرض الغرفة



يتعيّن على الفتاة جلب الماء



الأم تحضّر الطعام
الأب ينتظر دون إتيان أي عمل



يتعيّن على الفتاة أن تخدم العائلة



الأم تحضّر المائدة مع ابنتها

أطفال وبالغون من الجنسين يقومون بأعمال منزلية





الأب يحضّر المائدة مع ابنته





الفتى يقوم بالتدبير المنزلي



فتى وفتاة يحضّران الطعام



الأب يكسب المال لإعالة العائلة
الأم ترعى الأولاد (وتقوم بالأعمال المنزلية)

٢٧

النساء تقوم فقط بالأعمال المكتبية



٢٨

ضاربة على الآلة الكاتبة



معلمة

٣٠



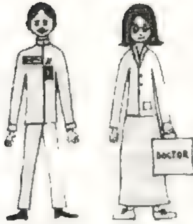
مساعدة ممرضة

٢٩

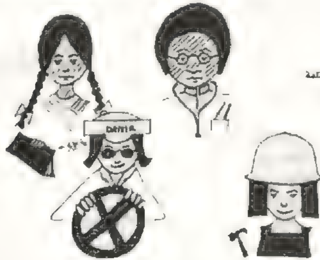


٣١

نساء ورجال يعملون سوية في مختبر



٣٢



نساء يعملن في وظائف مختلفة
تعتبر تقليدياً للرجال

دليل لمعاملة الجنسين بالمساواة
صادر عن دار نشر ماغروهيل

مقدمة

إن الوصايا في هذا الدليل ليست جامدة في مجملها ولا في تفاصيلها، وهي على كل حال لا تتوجه إلا إلى الأدب المبدع. جل ما نرغبه هو أن نقترح على الناشرين والمؤلفين في ميدان مواد التربوية والكتب والأفلام المخصصة للأطفال، اتخاذ موقف محدد وبعض الوسائل للتعبير عن هذا الموقف.

إننا نعتقد بأن على هذه الوسائل التربوية أن تعكس الإيمان العميق بأن لكل إنسان كرامته وأنه يستحق ذلك بغض النظر عن جنسه أو عنصره أو لونه، إذ إن كل إنسان يمتلك جوهراً إنسانياً. إننا نرغب في رؤية وسائلنا التربوية وسيلة لتنمية إمكانيات أطفالنا بغض النظر عن الطريق التي اختاروها، ويتحرر كامل من آي نموذج تمييزي ظالم. إننا لا نتوقف عند أشكال معينة للتعبير ولكن المهم في نظرنا هو ذلك الحس بالمساواة، وبقيمة الفرد، ويتطور إمكانياته بحرية.

غالباً ما تعبر بعض الكلمات -والطريقة التي تستعمل بها- عن الحس بالكرامة والمساواة، أو على العكس من ذلك، فقد تكشف الكلمات واستعمالاتها عن عدم تحسس الكاتب لأمور غائبة تماماً عن ذهنه.

لقد أدرجنا، لهذا السبب، عدداً من الكلمات والعبارات والتركيبات في هذا الدليل، التي يمكن آن تشكل انحرافاً جنسوياً. واقترحنا بعض الطرق لتفاديها. ونحن لا نطلب اعتمادها واستعمالها آلياً. ليس من الضروري بالطبع، للتوصل إلى كتابة لا جنسوية، استعمال تعابير لا واعية متعثرة آو

اللجوء إلى تركيبات جاهزة. ما نحن بصدده هو جوهر ما ننشر وليس كلمات أو عبارات لذاتها. الجوهر هو مفاهيم تعادل الفرص الإنسانية، والكرامة، والحرية، بالإضافة إلى الوسائل الفضلى لبلوغ ذلك.

الكسندر بروك الأبن

الرئيس

شركة ماغروهيل للنشر

دليل معاملة الجنسين بالمساواة

حول هذا الدليل

لقد نحت تعبير الجنسوية، بالمماثلة مع العنصرية، للتعبير عن التمييز المستند إلى النوع. في معناه الأول، يقصد هذا التعبير التحامل ضد الأنثى، أما في معناه الواسع يعني اليوم، إن آية نمذجة اعتباطية للذكور أو للإناث إنما تستند إلى الجنس (أنثى أو ذكر).

إن ما نسعى إليه من وضع هذا الدليل هو إزالة الفرضيات الجنسوية من منشورات دار ماغروهيل، وتشجيع الفرد على انتهاج حرية أوسع لمتابعة ما يهمه ولاستنفاد طاقاته. لقد صمم هذا الدليل، بشكل خاص، لتوعية موظفي دار ماغروهيل والمؤلفين المتعاونين معها على النمذجة التمييزية التي سجن فيها الذكور والإناث في منشورات الدار، ولإظهار الدور الذي لعبته اللغة في تجذير اللامساواة، ولإبراز المقارنات الإيجابية من أجل التوصل إلى تعامل منصف، دقيق ومتوازن لكلا الجنسين في منشوراتنا.

تقضي إحدى هذه المقارنات باستخدام عدد كبير من النساء للتأليف وللمساهمة في كل حقول العمل على اختلاف وجهات نظرهن وكتاباتهن على أن يُبرزن في الاستشهاد وفي الاستناد كل ما كان ذلك ممكناً. على «المصنفات» و«المختارات» أن تشمل نسبة أوسع من المواد التي اختارتها النساء، أو ما يتعلق منها بالنساء، وحيث تتوفر المواد المناسبة والتي غالباً ما يُغفل ذكر النساء فيها.

لقد عرفنا عند النساء كما عند الرجال، قادة وأبطالاً، مستكشفين

ورواداً، ومساهمين مميزين في العلم والطب والقانون والأعمال، والسياسة، والمدنيات، والاقتصاد، والأدب، والفن، والرياضة، وفي ميادين أخرى. على الكتب التي تتناول مذل هذه المواضيع، كما على المصنفات التاريخية، أن تشير إلى إنجازات النساء. يجب أن يخضع واقع تجديد العادات والظروف الاجتماعية لحقوق المرأة وفرصها وإنجازاتها، لمناقشة محدودة كلما سمح الموضوع المطروح بذلك.

إننا ندرك استحالة حصر اللغة الأدبية، إن توصيات هذا الدليل لا تتوجه إذاً، إلى الكتابة بشكل عام، بل إلى المواد التربوية والمراجع بشكل خاص.

أدوار الرجال والنساء

ينبغي التعامل مع الرجال والنساء، كبشر وليس بموجب انتمائهم إلى هذا الجنس أو ذاك. إنهم جميعاً شركاء في الإنسانية، يجدر إذاً التشديد على صفاتهم المشتركة وليس على الفروقات بين الجنسين. كما يجدر تفادي أي تصنيف أو أي تحديد اعتباطي لدور (أساسي أو ثانوي) يخصص لجنس دون الآخر.

إلغاء التصنيف في الوظائف

لاشك أن الكثيرات من النساء سيثابرن على اختيار الوظائف التقليدية (ربة منزل، أو سكرتيرة)، ومع ذلك فلا يجوز حشر النساء عموماً في هذه الأدوار، بل يجب إظهارهن عبر أفقٍ واسع من الوظائف والمهام: طبيبة أو طبيبة أسنان بدل ممرضة، مديرة أو أستاذة بدل مدرسة، قاضية أو محامية بدل عاملة اجتماعية، رئيسة مصرف بدل موظفة صندوق، عضوة مجلس النواب بدل عضوة رابطة النساء المقترعات.

ويدب، عبر نفس المنحى، التوقف عن إظهار الرجال بصورة «أسطورة الرجل» سواء من نوع اهتماماتهم، أو في مواقفهم، أو في نوع المهن التي يمارسونها، ولا يجوز أن نسمح لهم بالشعور بأن قيمة كل منهم إنما هي في الدخل المالي الذي يتقاضاه، أو في الوضع القانوني لوظيفته. كما لا يجوز

إحاطتهم بما يحملهم على الاعتقاد بأن على الرجل أن يتعلم أكثر من المرأة أو أن مسؤولية إعالة العائلة تقع على كتفيه وحده.

علينا أن نحاول كسر هذه النماذج الجامدة، لادوار الرجال والنساء. ولا يجوز تخصيص أية وظيفة لا تتلاءم مع أنوثة المرأة، وتلك لا تتلاءم مع «رجولة» الرجل. يجب أن نرى النساء والرجال في وظائف مثل: محاسبة، مهندس، طيار، سمكري، باني جسور، مهندس كمبيوتر، مصلّح تلفزيون، رائد فضاء، كما يجب رؤية النساء والرجال في وظائف أخرى مثل: ممرض، مدرس، سكرتير، طابع دكتيلو، عامل مكتبة، عامل أرشيف، موزع هاتف، وحاضن أطفال.

يجب أن نرى النساء الموظفات في جميع مستويات الوظيفة، بما في ذلك القمة. يجب تصوير المرأة في مواقع السلطة على الرجال وعلى النساء، ولا يجوز أن يشعر الرجل بالحرج أو بالخجل من تلقي الأوامر من سيدة ترأسه، أو أن تجد امرأة صعوبة في الخضوع لسلطة امرأة. لكل عمل، مهما كان، حق الاعتبار الشريف وحق الاحترام. ولا يجوز تحقير أي عمل أو السخرية من أي اختيار لعمل. على العكس، يجب فتح باب إمكانيات العمل أمام النساء والرجال، بشكل أوسع مما كان عندما كان العمل يصنف حسب الجنس.

أسلوب الحياة

على الكتب المخصصة للأولاد (في الحضانة والمرحلتين الابتدائية والثانوية) أن تبرز نساء متزوجات يعملن خارج المنزل، وأن تعطي عنهن صورة مشجعة. على المواد التربوية أن تتلافى التقرير أو الإيجاد بأن معظم النساء هن زوجات (وأمهات بدوام كامل)، بل على العكس تماماً. على هذه المواد التشديد على أن المرأة أن تختار الوضع العائلي الذي تريد، مثل الرجل، هناك نساء اخترن البقاء عازبات، بينما سعت الأخريات إلى الزواج، وهناك نساء متزوجات دون أن يلدن، وآخرات تزوجن وولدن وثابرن على العمل خارج المنزل. يجب أن يرد في النص شيء من هذا، يتزوج بعض الأشخاص ويلدون،

أشخاص آخرون يتزوجون ولا يلدون، في بعض الأحيان يعمل الوالدان أو أحدهما خارج المنزل. لا يجوز إطلاقاً أن يرد في مادة دراسية القول بأن المرأة تمتلك «غريزة الأمومة»، أو أن التوازن العاطفي للعائلة يتأثر بعمل المرأة في الخارج. يجدر، على عكس ذلك، القول: عندما يعمل الوالدان خارج المنزل، يزيد تعاونهما في العناية بأطفالهما. أو يستعينان بدور الحضانة، أو مراكز استقبال الأطفال، أو بمساعدات أخرى.

أظهرت إحصاءات وزارة العمل الأمريكية لسنة 1972 أن 42٪ من الأمهات (أمهات أولاد دون سن 18) يعملن خارج المنزل، ثلثهن أمهات لأطفال دون السادسة، على كتبنا ومنشوراتنا أن تعكس هذا الواقع.

يجب أن نظهر الرجل والمرأة على السواء ضالعين في الأعمال المنزلية، من الطبخ والتنظيف إلى غسيل السيارة وكافة التصليحات.

يجب إبراز الرجل أحياناً وهو يحضر الطعام أو يكوي الثياب أو يستظهر الطفل، فيما المرأة تقيم رفوفاً للكتب أو تخرج القمامة.

اختيار المهنة

علينا أن نبرز أن الفتيات يتمتعن، بمارسن نفس الخيارات التي يتمتع بها الفتيان تجاه المهن. يجب أن تجد الفتيات في المواد التدريسية تشجيعاً على دراسة الرياضيات، والمهارات الميكانيكية، والرياضيات النشطة مثلاً، وأن يُشجع الفتيان على الإقبال على الشعر والفن الموسيقى دون أي شعور بالخجل، أيضاً الاهتمام بالطبخ والخياطة والعناية بالأطفال فيمكن مثلاً، أن يتوجه درس الاقتصاد المنزلي نحو الفتيان كما نحو الفتيات، وعلى الكتب المدرسية أن تبرز في رسومها رجالاً ونساءً يمارسون مهناً مختلفة.

عندما يكون كتاب ما، في حالة عملية معينة، موجهاً أساساً لاستعمال المرأة (وذلك خلال العمر الوسطي للطبعة، أي 5 سنوات)، فمن المغالاة الإدعاء بأن قراء هذا الكتاب سينقسمون مناصفة بين الرجال والنساء. من الأفضل، في مثل هذه الحالات، أن يتوجه الكتاب كلية نحو المرأة للاستفادة من كل الفرص:

- للتنبيه إلى نطاق واسع من الخيارات أمامهن؛ و
- للتشجيع على الانفتاح على أدوار أكثر نشاطاً وفعالية، وفي مركز القرار.

على الكتب أن تبرز الفتيات والنساء في صور المساهمات النشطة بنفس النسبة التي يبرز فيها الفتيان والرجال، وذلك سواء في القصص والرسوم أو في المسائل والأمثلة أو في الاختبارات والمناقشات (وفي كل المواد دون استثناء)، لا يجوز تصنيف المرآة في الأمثلة بحيث لا يأتي ذكرها إلا مع نشاطات محددة مثل الطبخ والتنظيف والتسوق وغير ذلك.

الصور، مقاربة إنسانية

يجدر تصوير الأفراد من الجنسين في الكتب كبشر لهم نقاط قوة ونقاط ضعف وليس كنساء أو ذكور. ويجب إظهار النساء والفتيات وهن متمتعات بنفس القدرات، والاهتمامات والطموحات التي يتمتع بها الرجال والفتيان. على الفضائل التي درجت التقاليد على تمجيدها في الرجل (الجرأة، والمبادرة، والثقة بالنفس) أن تكون موضع التمجيد لدى المرأة أيضاً. على الفضائل المنسوبة تقليدياً إلى المرأة (اللطف، التعاطف، والإحساس) أن تكون موضع تمجيد لدى الرجل أيضاً.

ينبغي تصوير المرأة والفتاة، كما يصوّر الرجل والفتى، بصورة: المستقل، النشيط، القوي، الشجاع، المؤهل، الحاسم، المثابر، الجدي، والناجح. ينبغي أن يبرزوا جميعاً بصفات مفكر منطقي، وحلال مشاكل، وصاحب قرار. كما يجب أن يظهروا جميعاً بصورة المهتم بعمله، المتابع لعدة أهداف في عمله، والمستحق (أو الحائز) على التقدير العام لإنجازاته.

يستحسن تصوير الرجل أحياناً بصورة الهادىء، المستكين، أو الخائف المتردد، أو اللامنطقي وغير الناضج. كما يستحسن تصوير المرأة أحياناً بصورة القاسي، والمقدام والمثابر بعناد. صورة الذكر المنطقي والموضوعي، يجب أن تختفي، كما يجب أن تختفي صورة الأنثى العاطفية اللاموضوعية. وفي وصف الشخصيات يجب آن تتقاسم المرأة والرجل (أو الفتاة والفتى) على

حد سواء صورة الإنسان الذكي، والشجاع والناضج. أما في الرسوم، فلا يجوز أن تبقى للذكر وحده صور الأطول والأثقل والأقوى والأنشط، وخاصة عندما تتناول هذه الرسوم الأولاد.

وصف الرجال والنساء

يجب التعاطي مع الرجال والنساء بنفس القدر من الاحترام، والكرامة، والجدية، دون أي تسليم بأحكام مسبقة أو بنماذج تمييزية، سواء في النصوص أو في الرسوم. ولا يجوز وصف المرأة بصفاتها الجسدية عند تقديم الرجل عبر صفاته العقلية أو وضعه المهني، يجب، على العكس، وصف المرأة والرجل باستعمال نفس التعابير، وإلغاء الركون لاستعمال الإشارة إلى المظهر، أو السحر، أو الحدس، عندما لا يكون ذلك مناسباً.

لا تقل:	... بل قل:
هنري هاريس محام بارع وزوجته آن سمراء جذابة	الزوجان هاريس جذّابان. هنري أشقر ووسيم، وآن سمراء جذابة. أو: الزوجان هاريس مثيران للاهتمام. فهنري محام بارع، آما آن فذات نشاط فريد. أو: الزوجان هاريس محترمان في حقلي عملهما. آن موسيقية مشهود لها، وهنري محام بارع.

في مجال وصف النساء يجب إلغاء بعض الصفات المشينة بالإضافة إلى النكات الجنسية، أو بعض الإيحاءات أو اللعب بالكلمات. من الأمثلة المطلوب إلغاؤها: التركيز على المظاهر الجسدية (الشقراء الممتلئة)، استعمال التأنيث الخاص لبعض الكلمات (Avistrls ،Ueberstts ،Poetess)، التعامل مع المرأة كموضوع جنسي، أو تصوير المرأة العادية بصور الضعف الجسدي أو الاختلال العقلي، اعتبار المرأة موضوع هزل ودعابة أو موضوع تحقير أو لا مبالاة.

من الأمثلة على النماذج الجنسوية المطلوب إلغاؤها، أنثى شاردة الذهن، وَرْدَةٌ سريعة العطب، آلهة على نصبها، قطة ثرثارة، عانس محرومة،... يضاف إلى ذلك نكات تجعل المرأة هي المحور (مثل المرأة سائقة السيارة)، أو تلك التي تتناول الحمأة الغاضبة.

لا تقل:(*)	... بل قل:
الجنس الضعيف	النساء
الفتيات أو السيدات (عند الإشارة إلى النساء البالغات)	النساء
الفتاة، مثلاً: سأطلب من فتاة القيام بذلك.	اسم الفتاة أو صنعتها، مثلاً: سأطلب من مساعدتي
المرأة الصغير، النصف الأفضل	الزوجة
الشيء الصغير الطيب	المرأة الشابة، الفتاة
سيدة المنزل (ست البيت)	مدير المنزل
أزعجت أصوات التدريب سيدات البيوت في الجوار	أزعجت أصوات التدريب سكان الجوار
شكت سيدات البيوت من غلاء الأسعار	شكا المستهلكون من غلاء الأسعار

في وصف الرجل، وخاصة الرجل في المنزل، لا يجوز الإشارة إلى وضع غريب أو غير مناسب. كما لا يجوز إبراز الرجل بصورة المعتمد على النساء لإطعامه أو على ترتيب البيت أو غير قادر على العناية بنفسه.

للإلغاء أيضاً: الإشارة إلى حاجة الرجل لنصيحة المرأة بشأن ملبسه ومأكله، الإيحاء بأن الرجل المريض عاجز عن العناية بنفسه، التنكيت حول الرجال (الزوج المطيع!).

يجب اعتبار النساء على أنهن جزء من القاعدة، ولسن الاستثناء.

(*) حذف المترجم من هذه اللائحة بعض الأمثلة اللغوية الانكليزية التي لا تجد مقابلاً لها في اللغة العربية.

يجب أن نفهم كلمات مثل: (طبيب وممرض) على أنها تشير إلى النساء والرجال. ويجب تغيير العادة السارية التي تستعمل تعابير مثل «امرأة طبيبة» أو «رجل ممرض». يجب الإقلاع نهائياً عن تصنيف بعض الأعمال بـ«أعمال نسائية» أو «أعمال رجالية». على الكتّاب التخلي عن موقف الإعجاب والدهشة تجاه النساء الناجحات في العمل. («مع أنها امرأة، فقد نجحت في عملها نجاح الرجال». أو «مع كونها امرأة، فلقد تولت الإدارة بفعالية»).

مساهمات النساء في العمل

ينبغي التكلم عن النساء كشريكات في العمل وليس كممتلكات للرجال.
ولا يجوز حصر تعابير مثل رائد ومزارع وعالم بالرجال البالغين دون النساء.

لا تقل:	**... بل قل:**
اكتشف الرواد الغرب، مصحوبين بزوجاتهم وأولادهم	تحركت عائلات الرواد نحو الغرب.
	تحركت الرواد (رجالاً ونساء) نحو الغرب، مصحوبين بأولادهم.

ينبغي العزوف عن تصوير المرأة عاجزة عن العمل أو عن ممارسة حقوقها، إلا بإذن من الرجل (إلا إذا كان يتناول بالطبع، حادثة تاريخية معينة، أو ما شابه ذلك).

لا تقل:	**... بل قل:**
سمح جيم وايس لزوجته بالعمل بدوام نصفي.	جودي وايس تعمل بدوام نصفي.

يجب الاعتراف للنساء بإنجازاتهن. كما يجدر إبراز النساء الجريئات والمبدعات (سواء كن حقيقيات أم من صنع الخيال) كنماذج للفتيات. كما يجدر تخصيص زعيمات النضال لحقوق المرأة بالتشريف والاحترام، وليس بالتجاهل والسخرية.

اعتبارات لغوية

اعتباراً للإنسانية بمعناها الواسع، على اللغة أن تحمل في رحمها النساء والفتيات. وعلى التعابير التي تميل لإبعاد الأنثى أن تختفي، عندما يكون للغة إلى ذلك سبيلاً.

لقد استعملت كلمة رجل لمدة طويلة (وخاصة في بعض اللغات الأوروبية) لا لتعني الشخص المذكّر فقط، بل لتعني الإنسان بصفة عامة. أما اليوم، فكثيرون هم أولئك الذي يفهمون من كلمة «رجل» معناها الأول المباشر (الإنسان الذكّر)، ولا يحملونها المعنى الواسع الذي يسمح باستعمالها للإشارة إلى أي شخص أو إلى الإنسان بصورة عامة.

من هنا، يجدر اللجوء إلى تعابير بديلة تحل محل كلمة «رجل» (أو إلى الاشتقاقات المستعملة للإشارة إلى الإنسان عامة) كلما كان هذا الاستبدال سليماً من الناحية اللغوية (أي حراً من الأسلوب الغليظ أو من التركيبات المصطنعة). وكلما وردت كلمة «رجل» بمعنى إنسان، على المؤلف أن يبذل الجهد اللازم لتلافي ذلك واستعمال الصور وكافة الوسائل للتوصل إلى تعبير يشمل الرجل والمرأة.(*)

نعطي فيما يلي بعض الاستبدالات لتعابير تشمل كلمة «رجل»:

لا تقل(**):	**... بل قل:**
الرجل البدائي	الأقوام البدائية، الإنسان البدائي، رجال ونساء بدائيون.
إذا قاد الرجل سيارته...	إذا قاد شخص سيارته...
أفضل رجل لهذه الوظيفة	أفضل شخص لهذه الوظيفة

التعبير في اللغة

قلما نجد في اللغة الإنكليزية ضمائر يمكن استعمالها للمؤنث وللمذكر في الوقت نفسه(*). ولذلك فقد ألفنا استعمال ضمير المذكر غالباً للإشارة إلى المذكر أو المؤنث دون تمييز، ومع ذلك فالمطلوب هو تفادي استعمال الضمائر «هو» و«هي» عندما لا يكون المقصود المذكر حصراً.

يمكن استعمال البدائل وفق الأنماط التالية:

1- إعادة الصياغة للتخلص من ضمير المذكر:

لا تقل: «يشرب الأمريكي العادي قهوته السوداء»... بل: «يشرب الأمريكي العادي قهوة سوداء».

2- اخلص إلى صيغة الجمع: «يشرب الأمريكيون قهوتهم سوداء».

3- نوّع في استعمال المذكر والمؤنث في الأمثلة:

لا تقل: «لقد سمعت المدير مراراً يقول: إنه ليس الرجل المناسب لهذا العمل... أو «إنه لا يملك مقومات النجاح...»

بل قل: «لقد سمعت المدير مراراً يقول: إنها ليست الشخص المناسب لهذا العمل... أو «أنه(*) لا يملك مقومات النجاح...»

4- لتفادي رتابة التكرار والكلمات الغير مناسبة، يحسن أحياناً استعمال ضمير «هو» دون حرج مع إضافة ملاحظة في المقدمة (أو حيث أمكن ضمن النص) تشير بأن هذا الضمير يشير إلى المذكر والمؤنث وأن الإيجاز في النص هو الذي فرض ذلك.

تقدم هذه الإرشادات بعض الحلول لمسائل شائكة تتعلق بالصيانة اللغوية. الحل المناسب في أي نص يتعلق أساساً بالمضمون وبمقاصد المؤلف. من الخطأ، مثلاً، أن نضع في صيغة الجمع نصوصاً تتناول - حصراً علاقة بين شخص وآخر، كما بين المدرس والتلميذ. من المناسب هنا استعمال الضمير «هو» أو «هي»، أو اللجوء- عند الحاجة إلى العبارة: «هو و/أو هي».

الوظائف

هناك أسماء لبعض الوظائف تنتهي بكلمة «رجل»، ينبغي استبدال هذه التعابير، حيث أمكن، بتعابير تصلح في التذكير والتأنيث على السواء، إلا إذا كان المقصود الإشارة إلى وظيفة شخص مذكر بالفعل.

لا تقل[*]:	... بل قل:
رجل أعمال	مدير أعمال، منفذ أعمال
رجل إطفاء	مكافح النار، عامل إطفاء
رجل بريد	ساعي، حامل البريد
رجل التأمين	وكيل التأمين
رجل دولة	زعيم، خادم الجمهورية

يجب، ختاماً، تجنب استعمال لغة تفترض أن قراءها هم من الرجال دون غيرهم. لا تقل مثلاً: «أنت وزوجتك»... بل قل: «أنت وشريكة حياتك».

المعاملة المتوازنة

على اللغة المستعملة في الإشارة إلى الإناث والذكور أن تعامل الجنسين بالمساواة. ويجدر استعمال لغة متوازنة بين النساء والرجال.

لا تقل [**]:	.. بل قل:
الرجال والسيدات	الرجال والنساء
	السيدات والسادة
	الفتيان والفتيات
رجل وزوجته	زوج وزوجة

لاحظ أن كلمتي الزوج والزوجة تشيران إلى دور أو وظيفة، وكذلك السيد والسيدة، أو الأم والأب. تستعمل كلمة «سيدة» للمرأة عند استعمال كلمة «سيد» للرجل. كذلك يجدر الإشارة إلى المرأة التي تتبضع في دكان بكلمة مستهلك (كأي رجل يقوم بعمل مماثل) وليس بكلمة «ربة البيت».

---

[*] المسألة المعروضة هنا هي مسألة عائدة للغة الإنكليزية، وليست كذلك بالعربية- المترجم.

[**] حذف المترجم من هذه اللائحة بعض الأمثلة اللغوية الإنكليزية التي لا تجد مقابلاً لها في اللغة العربية.

الأسماء

ينبغي تسمية المرأة باسمها الأصلي (مثل أنديرا غاندي) وليس بتعابير تشير إلى دورها كزوجة، أو أم، أو أخت، أو ابنة، إلا إذا كان هذا الدور هو المعني بالضبط في النص. كما لا يجوز تعريف هذه المرأة بتعابير تحدد وضعها العائلي (السيدة غاندي) إلا إذا كان هذا التعبير يناسب مصلحة الأسلوب اللغوي (إذاً قل: رئيسة الوزراء غاندي)، أو يتناسب مع تزاوج في التعبير عن رجل.

يجدر الإشارة إلى المرأة باسمها بنفس الأسلوب التي يشار بها إلى رجل. يشار إلى الرجل وإلى المرأة بالاسم الكامل، الاسم الأول واسم العائلة أو بالصفة.

لا تقل:	**.. بل قل:**
السيدة منير وموشي دايان	غولدا منير وموشي دايان
	السيدة منير والسيد دايان
السيدة كينغ وريغز	كينغ وريغز
	السيدة كينغ والسيد ريغز
بوبي ريغر وبيلي جان	بوبي ريغز وبيلي جان كينغ

يجدر تلافي الإشارة إلى الوضع العائلي للمرأة إلا في حالة الضرورة. ويمكن الإشارة للمرأة باسمها سواء كانت متزوجة أم لا، ويحسن هنا استعمال الاسم الذي اختارته المرأة لنفسها، سواء كان اسمها الأصلي، أم الاسم المكتسب بالزواج.

على كل تعبير أن يشير إلى الجنسين كلما كان ذلك ممكناً، وبالتالي ينبغي تلافي كل إشارة للجنس لا تعتبر ضرورية. لا تقل: «أبناء الجامعة وبناتها»... بل قل: «الطلاب».

الألقاب

يستحسن في ألقاب الوظائف أن تتحر من الجنسوية كلما أمكن ذلك. كما يستحسن تلافي ألقاب الوظائف التي تختلف باختلاف جنس شاغلها (انظر لائحة التعابير المصحوبة بكلمة «رجل» والواردة أعلاه).

لا تقل:	.. بل قل:
المضيف والمضيفة	خادم الطائرة
رجل شرطي أو امرأة شرطية	عنصر الشرطة
خادمة أو «بوي»	خادم، منظف البيت

يجب التنبه إلى عدم ربط بعض الضمائر (في اللغة) ببعض الوظائف أو الأعمال استناداً إلى أن شاغلي هذه الوظائف هم عادة رجال أو نساء. يفضل في هذه الحالة اللجوء إلى صيغة الجمع أو صيغة «هو أو هي»، أو صيغة «هي آو هو».

لا تقل:	.. بل قل:
المستهلكة أو الشارية..	المستهلكون أو الشارون...
هي المعيل... راتبه	هم المعيلون... رواتبهم
	المعيل... راتبه/ أو راتبها

ليس فرضاً أن يذكر الرجل أولاً في أي سياق. ينبغي تلافي استعمال ترتيب محدد وذلك بتنويع الترتيب. النساء والرجال، السادة والسيدات، هي أو هو، له أو لها.

توصيات لمؤلفي ورسامي الكتب المدرسية
(وضع فرنان ناثان، ناشر، حزيران/يونيو 1980)

لم تعد الصور المقدمة عن الرجال والنساء في الكتب المدرسية تعكس الصورة الحقيقية للحياة كما يعرفها الأولاد، ولا تقدم للفتيات في معظم الأحوال، فرصاً متعادلة مع تلك التي تقدمها للفتيان.

تهدف الملاحظات التالية إلى تشجيعك على ممارسة أقصى درجات الحذر، عند كتابتك لمخطوطتك. إن التسامح تجاه المواقف والتعابير الجنسوية، والتغاضي عن وجودها في كتب مخصصة للأولاد (وليس فقط للصغار منهم)، هو عمل مناقض تماماً للغاية التربوية لتلك الكتب التي يفترض فيها أن تفتح نافذة على العالم الحديث، وأن تعلّم، وأن تستحثّ الفكر.

إن محاربة بقاء النماذج التمييزية المتحجرة، تشغل الدرجة الأعلى من الأهمية، فهذه النماذج ما تزال منتشرة على الأخص في الحقول الثلاثة التالية:

النشاطات المهنية - الاجتماعية للرجال والنساء (مهارات لا متساوية)

من الواضح، في هذا المجال، أن الأمثلة التقليدية في دروس القواعد، وتمارين اللغة وغيرها، هي ذات طابع تمييزي. هناك استعمال غالباً ما يتردد لضمير «هو» بشكل عام، ولأفعال «اخترع - عمل، صنع، بنى، أصلح، أدار، نظّم،... إلخ» التي تأخذ فاعلاً مذكراً، أما الأفعال «طبخ، غسل، خاط،... إلخ» فغالباً ما تأخذ فاعلاً مؤنثاً.

تصوير «الحياة» و«العائلة» (العلاقات بين الزوج والزوجة، الأم والأب، بين الزوجين والأولاد،...إلخ)

لقد أصاب التغيير أيضاً، في الحياة الحديثة، توزيع الأدوار والمهام بين الرجال والنساء، ويجب أخذ ذلك بالاعتبار هنا، كما في الفقرة السابقة، على الطفل أن يكون قادراً -وهناك من يجب أن يعلمه ذلك- على وصف الوضع الحقيقي بهذا الشأن (الأرقام الإحصائية تقول بوجود رجال أكثر من النساء في وظائف الإدارة والقرار. ونساء أكثر من الرجال في المطبخ بعد انتهاء العمل،... إلخ). ولكن هذا الواقع لا يبرر القبول به واعتباره «طبيعياً». من المهم، على العكس، أن نحمل الطفل على التفكير (على درجة ما من التعقيد) في مصادر وأسباب هذا الواقع، وأن نساعد على إدخال أنماط جديدة من الأفكار والمواقف.

إن إصابة الحقيقة تقضي أيضاً بالاعتراف بتنامي حجم «أقلية» من النساء يربين أطفالهن منفردات، إلى جانب «الأكثرية» التقليدية في الخليّة العائلية. فهل تستطيع اعتبار النموذج «التقليدي» للعائلة في كتب القراءة الابتدائية، عنصر اطمئنان لأولئك الأطفال (وهم لا ريب قلة) الذين لا ينطبق وضع عائلتهم على هذا النموذج؟

الصفات الطبيعية والنفسية والأخلاقية للصور (الحقيقية أو من صنع الخيال) الواردة في الكتاب

تصيب الجنسوية الفتيات والنساء إصابات مؤلمة في هذا النطاق (فهن: لعوبات، وخفيفات، ومسرفات، وعالة على الفتيان/ الرجال/ الأزواج)، ولكنها تصيب الفتيان أيضاً إذ تحرمهم من حقهم في التعب أو في قلة الذكاء أو الخوف. يجب إبراز الفرد دون ما حاجة لتعيين انتمائه لهذا الجنس أو ذاك. هذه التوصيات صالحة لكل مدرسة، ولكل موضوع، ولكل مرحلة، ولكنها تحتفظ بأهمية خاصة بالنسبة إلى كتب الأطفال الأولى (سن 6-8 سنوات)، وبالنسبة إلى الكتب المستعملة في التدريس (بما فيها كتب أدب الأطفال).

لا يقصد الناشر المساس بحق المؤلف بحرية الإبداع، ولكنه يقصّر على وجوب الأخذ بهذه التوصيات، وذلك لكي تتأكد من آن كتبنا المدرسية لم تعد تعكس صوراً تخطاها الزمن، ولم تعد وسيلة لنشر وتثبيت نماذج تمييزية بالية.

J.Soletchnik
المدير التربوي
دار فرنان ناثان

Abstract

This book has been written to provide an analysis of sexism in the Arabic language and to serve as a practical guide towards elimination of undesirable patriarchal characteristics in today's Arabic. The book is the result of intensive study of research papers and other printed materials on sexism in the Arabic language.

Writing this book in Arabic on language sexism, the author had little to go on in researching the subject. There are only few previous efforts usually confined to critical reviews of textbooks from a non-sexist point of view, pointing out patriarchal concepts and stereotypes coined for women and men. This material drew the author's attention to the very pronounced patriarchal bias in traditional as well as contemporary linguistic use and culture.

Chapter tow focuses on «The feminine gender in the Arabic syntax» because this book primarily addresses Arabic language in education department at Arab universities. This section is based on one of the most important books in Arabic heritage and, with its 900 pages, «Masculine and Feminine» written by Ibn El-Abari, as a model of Arabic syntax. This distinguished Arab Grammarian therein reflects the patriarchal culture of his time from his own point of view.

In the same Chapter the (female) author presents the hypothesis that the Arabic language is matriarchal by origin over which patriarchal concepts were superimposed. She refers to mythology and archaeological findings of ancient periods of humanity that celebrated the woman (the Great Mother-Ishtar) as the first creator.

فهرس

1000940420

اللغة الغائِبة

يهدف هذا الكتاب أن يكون دليلاً يقدم تحليلاً ما للغة الجنسوية، في مسعى نحو نموذج علمي لتخليص اللغة العربية من صفتها الذكورية الطاغية، ويسبق ذلك دراسةٌ أوليةٌ لظاهرة الجنسوية، ثم تجليها في عددٍ مهمٍ من الدراسات والإنتاج المطبوع قديمه وحديثه.

ولعل هذا الكتاب هو الأول من نوعه في المكتبة العربية بمبتغاه النهائي، وقد سبقته جهود لا تنكر في مجال نقد الكتب المدرسية وأدب الطفل وغيرهما، وما تتضمنه من مفاهيم ذكورية وتنميط لكل من المرأة والرجل. وهي الجهود التي فتحت عيني على حقيقة التحيز الذكوري الصارخ في ثقافتنا الماضية والمعاصرة، مما دفعني إلى القيام بدراساتٍ تتناول الجنسوية في الأدب القديم والحديث، آخرها -عند الانتهاء- بحث سأتقدم به لنيل درجة الدكتوراه من جامعة إكسترا/ بريطانيا عن ((صورة المرأة في أدب الأطفال العربي المعاصر)).

ولا بد أن أُنَوِّهَ بالجهود الأخيرة المتميزة للناقد الدكتور عبد الله الغذامي في مقالاته في جريدة الحياة اللندنية عن المرأة واللغة التي ظهرت إلى الوجود بعد إعداد هذا الكتاب.



للدراسات
والنشر
والتوزيع

